الباب الأول

أنواع الشخصية المحورية

عند على أحمد باكثير ونجيب كيلانى

الفصل الأول

أبرز أنواع الشخصية المحورية

عند على أحمد باكثير

تمهيد :

يقصد بالشخصية المحورية تلك الشخصية التى يتحرك بها ومنها الكاتب ليبرز غايته من العمل الأدبى ، روائياً كان أو حوارياً .

أما الشخصيات التى تبدو على السطح فى ثنايا تحرك الشخصيات المحورية فهى شخصيات ثانوية يوظفها ا لكاتب فى مرحلة من مراحل التطور الروائى ، ثم يتخلى عنها بعد أداء دورها لتظهر شخصية أخرى . وهكذا ...

وليس من شك أن محاولة استيعاب تلك الشخصيات جميعها قد يغفل عن الدور الأصيل للشخصيات المحورية ، كما أنه مع كاتبين فى مثل ثراء باكثير والكيلانى يصيب البحث بالتضخم المفرط لذلك قصرت تلك الدراسة على الشخصيات المحورية حتى يتيسر الكشف عن أوجه التميز بين الكاتبين ، إذ أوجه التوافق فضلاً عن أنها ميسورة واضحة لا تضيف جديداً فى مجال الدراسة النقدية على نحو ما قرره الدكتور إبراهيم عوضين فى قوله :

" إن جوانب التشابه لا تقدم ولا تؤخر فى البحث عن الحقيقة ، إذ أوجه الشبه بين أى عمل وبين آخر متوفرة ، ولكن العبرة بالتخالف (١) .

(١) المعارضة فى الأدب العربى ، ص ١٥ طبع السعادة بمصر ، سنة ١٤٠١هـ / سنة ١٩٨١م .

أبرز شخصيات (سلامة القس) ،

١- الراهب العاشق :

يقدم علي أحمد باكثير في روايته " **سلامة القس** " شخصية دينية تتمتع بخصائص اجتماعية وميزات أخلاقية وسلوكية ، مكتسبة من الواقع المحيط بها ، والنشأة التي أظلتها منذ الطفولة ، مما أضفى عليها شيئاً من الانعزالية وجفاف المشاعر والوجدان ومن خلال علاقة عاطفية رومانسية أصابت هذه الشخصية ، نراها تتعرض لصدمات ونكبات نفسية واجتماعية ووجدانية ، والكاتب من خلال هذه العلاقة يحاول طرح عدة قضايا ، تتعلق بالمثل الأخلاقية الدينية ، والمثل الوجدانية ، فيخرج بالشخصية من عزلتها المفرطة ، إلى معترك الحياة الدنيا وإلى التأمل في الكون والدين ، ليقرر أن الحب في أسمى صوره ، ضرورة تغذي الروح والعقل وأن ملاطمة الحياة ومكابدتها خير من العزلة في سياج الدين ، وأن المشاعر الإيمانية والوجدانية ، لا تنمو إذا كان الشخص وحيداً في الحياة ، لا يعرف من أمور دينه إلا الفرائض والنوافل .

وشخصية أبي عبد الرحمن ابن أبي عمار – الملقب " **بالقس** "، شخصية نشأت في ربوع مكة المكرمة حيث الحرم الشريف ، والجو الإيماني المليء بالنفحات الربانية وحيث قرب العهد بصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم – إذ أن أحداث الرواية دلت على أن مكان الأحداث مكة المكرمة وأن زمانها ، زمن العصر الأموي ، كذلك أشخاصها فمنهم عمر بن أبي ربيعه والأحوص والغريض وغيرهم من شعراء العصر الأموي ، وحفاظاً على قداسة العلاقة بين شخصية الراهب والمغنية " **سلامة** " ، نرى الكاتب يصدر روايته بآية قرآنية محاولاً من خلالها ، أن يضفي نوعاً من الشرعية على تلك العلاقة العاطفية ومستدعياً إلى الأذهان ، قصة نبي الله يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز .

يقول الله تعالى :

" وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ " (١)

ولجوء الكاتب إلى هذه الافتتاحية القرآنية للرواية ، يوضح لنا أمرين :

الأول : موقفه من الشخصية ومن العلاقة ذاتها : إذ هو موقف الدفاع عن القيم الإيمانية والدينية والاجتماعية الأخلاقية ، والدفاع عن المشاعر الوجدانية النبيلة ، إذ أن الآية الكريمة تشير إلى براءة النبى يوسف عليه السلام ، من الانحدار إلى مدارك الشيطان إذ يقول أحد المفسرين فى توضيح مغزاها " لقد همت به ليفعل بها ، ولولا أن رأى برهان ربه وتذكر جلاله وأمره ومراقبته لهم بها وفعل ، ترى أنه لم يهم بها قط لأن رؤية البرهان قد سبق الهم ومنعه "(٢) . فالكاتب يريد أن يمنح شخصيته عصمة كعصمة يوسف عليه السلام من ارتكاب الذنب .

الأمر الثانى : الصدق الفنى والموضوعى : إذ يريد الكاتب أن يحيط شخصية القس ، بنسيج من الصدق والموضوعية ، معتمداً على ثقافته العربية والإسلامية الأصيلة والصدق الأدبى غاية الأديب المخلص لفنه ، وقد حدد النقاد ماهيته ودوره فى العمل الأدبى " **إذ يراد به عادة الوقوف عند حدود الأخلاق والمواصفات الاجتماعية السائدة**"(٣) فصدق الكاتب وهدفه مردهما إلى العرف "(٤) والتكوين الفكرى والحضارى المرتبط بعوامل التطور ومسايرة الأوضاع السائدة ، وحرصاً من الكاتب على شرعية هذا الصدق وهذه العلاقة ، نراه يختم روايته بآية قرآنية أخرى تؤكد استمرارية العلاقة وأبديتها فى الدار الآخرة خاصة بعد عجز كل من الحبيبين عن تحقيق أمنيته ، يقول الله تعالى:

١(١) الآية رقم (٢٤) سورة يوسف .

(٢) د/ محمد محمود حجازى – التفسير الواضح حـ٢ ص٦٣ – الطبعة الثالثة ، ١٩٦٣، مطبعة الاستقلال الكبرى .

(٣) النقد الأدبى الحديث ، د/ محمد غنيمى هلال ، ص ٢١١ .

(٤) السابق ، ص ٢١١ .

" ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ "(١).

فكانت هذه الآية عهداً افترقا عليه وتعاهدا على حفظه . عسى الله أن يجمعهما في الجنة .

هذه النهاية الإيمانية تؤكد تمجيد الكاتب للمثل الأخلاقية ، مع ضرورة المحافظة على نقاء الوجدان وطهارته ، وتؤكد أن القضايا التي طرحها في هذه الشخصية ، ليست إلا نتيجة حتمية لمن يعيش منعزلاً عن الحياة والناس ، وتؤكد أيضاً أن هذه الرواية تدخل في باب الأدب الإنساني ، الذي يعلي الشعور والأحاسيس المرتبطة بالنواحي الوجدانية والعاطفية .

وباكثير – من خلال العلاقة العاطفية بين – القس وسلامة – والتي يغلب عليها النزعة الصوفية ينتصر للحب في أسمى صوره ، وفي عطاءاته المتعددة الجوانب والاتجاهات ، في ظل تعاليم الدين الحنيف ، وفي ظل التقاليد العربية الموروثة .

وشخصية " **القس** " أو أبي عبد الرحمن بن أبي عمار " **الراهب العاشق** " صورها الكاتب من جميع جوانبها ، ففي الفصل الأول والثالث والسادس من الرواية ، يقدمها تقديماً إيمانياً يكشف عن زهدها وورعها وتقواها ومكانتها بين الناس ، فقد نشأ القس نشأة دينية في أحضان الحرم المكي ، يتلقى العلم عن كبار العلماء وأتباع الصحابة " حتى لقبه أهل مكة بالقس ، وغلب عليه هذا اللقب حتى كاد لا يعرف إلا به ، وكان اسم عبد الرحمن القس عنواناً للشاب العفيف الناشئ في عبادة الله الملازم للمسجد الفقيه في الدين وكان الشيوخ والكهول يروون عنه الحديث ولا يجدون حرجاً في استفتائه وتلقي العلم عنه

---

(١) سورة الزخرف ، الآية رقم (٦٧) .

واشتهر أمره فلم يكن من بيت بمكة لم يسمع به ، وكانت المرأة من نسائها تعلل ابنها الرضيع بأن ينشأ نشأة القس ، وكان الرجل يتمنى على الله لو رزقه ولداً مثله " (١) .

وعبد الرحمن القس ، شاب فى نحو الخامسة والعشرين ، معتدل القامة عريض الأكتاف ، خفيف اللحم ، دقيق الأطراف ، أبيض الوجه فى سمرة تشوبه ، وتزينه لحية سوداء ليست بالكثيفة ولا بالخفيفة ، يتصل بها عارضان عليهما شعرات منتظمة ، أحفى شاربه فلا يبدو منه إلا خضرة أصول الشعر ، وتظلل أنفه الأقنى أهداب طويلة ، سوداء مرسلة من عينين شهلاوين عليهما آثار السهر ، وفوقهما حاجبان كثيفان لو زحفا قليلاً لاقترنا ، وتلوح على جبهته الواسعة سجدة خفيفة فى مثل لون الرصاص لا يشك الناظر إليها أنها جبهة عابد " (٢) .

ويقول النقاد " **إن الشخصية هى التى تحدد نوع الحادثة ، والحادثة هى التى توضح لنا طبيعة الشخصية** " (٣) ، ويقول علماء النفس أن الفرد ليس شخصية واحدة بل عدد من الشخصيات " (٤) ، فى ضوء نظرة النقاد وعلماء النفس للشخصية الروائية وتطورها ، هل تستطيع شخصية " **القس** " ، وهى بهذا الوصف والرسم بعد أن حدد الكاتب ملامحها ومكوناتها ومفرداتها الخارجية والداخلية ، وقلة تجاربها ، أقول هل تستطيع أن تحدد الحادثة ؟ أو تستطيع أن تنبئنا بالفكرة العامة أو بمكنونها ؟ الحقيقة أن مثل هذا النوع من الشخصيات يمكن أن تكون حقل تجارب ، يبثها الكاتب ما يشاء، لكن هذا التعامل محدود بحدود دينية وتراثية ، ومحدود بتقاليد وأعراف الحياة العربية القديمة التى تستمرئ هذا التحول الخطير فى مثل هذا النوع من الشخصيات ، وقد بدا هذا واضحاً

---

(١) رواية " سلامة القس " على أحمد باكثير ، ص ٥ .
(٢) السابق ، ص ٦٣ .
(٣) الأدب وفنونه ، د/ محمد عنانى ، ص ١٣٢ .
(٤) السابق ، ١٤٣ .

حينما زج الكاتب بشخصية القس فى أتون معركة نفسية ووجدانية ، كاد ينفطر لها قلبه وعقله من قلة تجاربه ، وكاد يفقد مكانته بين الناس .

وعلى ذلك فهى شخصية غير مكتملة النضج الفنى الذى يؤهلها لأداء هذا الدور يدعم هذا الاتجاه اعتماد الكاتب على توظيف الحلم – للانتقال بالشخصية من مرحلة إلى أخرى ، من الانعزالية فى حدود مرسومة ومعروفة من المسجد إلى البيت ومن البيت إلى المسجد " (١) كما صور ذلك فى روايته ، إلى الحب والانطلاق – وكان هذا الحلم بمثابة التمهيد لتطور هذه الشخصية ومحاولة استشراف مستقبلها ، مع المحافظة على دينها وتقواها .

يقول الكاتب على لسان هذه الشخصية ، فى حوار دار بينها وبين أبى الوفاء :

رأيت كأنى كنت فى الجنة إذا بصوت جميل آت من خارج باب الجنة فانطلقت لأستمع إليه وخرجت إلى الأعراف ، حتى إذا اقتربت من الجانب الآخر مما يلى النار بصرت على شفيرها بامرأة كأجمل ما رأيت من النساء ، محلولة الشعر ، عارية إلا ما يستر وسطها ، وفى يدها اليسرى مزمار ، فلما رأتنى فزعت إلى كأنما تعرفنى من قبل وطوقتنى بيدها اليمنى وتشبثت بعنقى وهى تصيح : **"عبد الرحمن أنقذنى! عبد الرحمن أغثنى !"** وسدى ما حاولت الإفلات من قبضتها فأخذت أجذبها إلى جهة الجنة وهى تنجذب إلى جهة النار ، حتى وقفنا معا على شفير الهاوية ، فارتعت لهول منظرها فانتبهت على صوت المؤذن بصلاة الفجر! " (٢) .

كذلك من مظاهر تطور هذه الشخصية ، الصلة التى ربطها الكاتب بينها وبين **" ابن سهيل"** الذى يمثل التحرر من القيود الدينية فى الرواية ، تبدأ هذه الصلة ، بمرور

---

(١) سلامة القس ، ص ٤٣ .
(٢) سلامة القس – على أحمد باكثير ، ص ٤٦ .

" **القس** " من أمام دار " **ابن سهيل** " وسماعه غناء سلامة وإعجابه بهذا الصوت وربطه بالصوت الذى سمعه فى حلمه " مشى عبدالرحمن بجانب السور فسمع صوتاً كالغناء آتياً من قبل المشربية الواقعة فى أقصى السور، وكلما اقترب منها ومن باب السور المفضى عليها زاد الصوت ارتفاعاً ووضوحاً، وإذا به يغنى :

إذا وجـدت أوار الحـب فـى كبـدى ذهبـت نحـو شـتاء المـاء أبـترد'

هبنـى بـردت بـبرد المـاء ظاهـره فمـن لنـار علـى الأحشـاء تتقـد'

وإذا برعدة تسرى فى مفاصل عبد الرحمن، وإذا به يثاقل فى مشيته وهو يقول " عجباً ما أشبه هذا الصوت بصوت المرأة التى رأيتها فى الحلم .. لله ما أعذبه .. إن له لحلاوة فى قلبى " (١).

ولمحافظة الكاتب على هذه الشخصية، نراه يجعل من الحوار وسيلة تبدو فيه متماسكة وتؤدى دورها – ففى حوار طويل دار بين عبد الرحمن القس وبين بن سهيل والأحوص وعمر بن أبى ربيعة والعرجى والغريض، .. يقوم فيه عبد الرحمن بدور الناصح المرشد لهؤلاء يدعوهم إلى الهداية وترك اللهو والمجون، بينما هم يتندرون عليه وينكرون مذهبه المعتدل (٢).

ويلاحظ أن الكاتب ينتقل بالشخصية من حالة الثبات والجمود إلى حالة الحركة والاضطراب النفسى، ولا يتحرج من أن يستخدم القيم النبيلة التى تناسب جو الشخصية ووسيلة تدفع بها فى طريق التطور، فعبد الرحمن يعود صديقه المريض – الشيخ " **أبا الوفاء** " الذى أقعده المرض – وفى الطريق لزيارته يمر من أمام بيت " **ابن سهيل** "

---

(١) الرواية، ص ٤٩.
(٢) الرواية، ص ٥٠ : ٥٧.

فمرة يسمع صوت الغناء صادراً من داخل البيت فينجو بنفسه متماسكاً ومرة أخرى ينتظره صاحب الدار ويمسك به ويضطره إلى الدخول وسماع الغناء " مما يومئ إلى رغبته المكنونة فى التعرف على هذا العالم ا لغريب ، والخوض فى غماره ليكشف ما لا عهد له به من قبل ، وتستمر زيارات " **القس** " لصديقه ابن سهيل وسماعه غناء سلامة وشدة تعلقه بها ، وتعلق قلبه بصوتها وجمالها ، فى الوقت الذى ينقطع فيه عن زيارة صديقه المريض أبى الوفاء .

وقد وفق الكاتب حينما أشعل الصراع فى داخل عبد الرحمن بين وجهته الزاهدة فى متع الحياة وزخارفها وبين انجذابه إلى الانفتاح على ما فى الحياة ، فقد شغف عبد الرحمن بسلامة ، فكان يحلم بها ليله ونهاره ، ويتسلل طيفها إليه حتى فى صلاته وقيامه وقامت بين نفسه الزاهدة الناسكة وبين نفسه المتفتحة للحياة حرب عوان صلى بنارها وكان وقودها فى روحه وجسمه ، وشقى بها شقاء لم يشق قبله مثله ، كما سعد بها سعادة لم يجد لها من قبل مثيلاً ، وحليت الحياة فى عينه وأصبح يجد لها معانى لم تخطر له من قبل على بال ، وتغيرت نظرته للأشياء فأصبح يراها بعين غير العين التى كان يراها بها وإلى الناس وأعمالهم ، فأصبح كثير العطف عليهم والعذر لهم (١) . وتفتح قلبه للشعر بعد ما كان يزدريه ويعتبره من اللهو الذى لا يليق بالمتقين ، فأصبح يهتز له ويقوله المرة بعد المرة ، ينفس به عن الكرب الذى يجده فى صدره ، أو يصف به السعادة التى يجدها فى قرب سلامة (٢) .

هذه التغيرات التى طرأت على تلك الشخصية ، والتى امتدت إلى أبعد من ذلك فبدت آثارها فى عبادته كما ورد على لسان " **القس** " حيث قال: " **فقد وجدتني بعد أن**

---

(١) الرواية ، ص ٧٢ .
(٢) الرواية ، ص ٧٣

بليت بحب هذه الجارية أكثر نشاطاً فى عبادة ربى ، وأغزر دمعة فى صلاتى ، وإذا قرأت القرآن رق قلبى وذاب ، وشعرت بفيض من المعانى ينثال على !" (١) .. وهكذا أضفى هذا التغير على شخصية القس بعداً مأساوياً جعلها تنظر إلى كل شئ من منظور وجدانى حالم وفى نفس الوقت فالقس لا ينسى ماضيه وواقعه ، ولا يتجاوز حاضره ، ولا يغفل عن مكانته بين الناس ، ويبدو ذلك حينما يلتقى سلامة ويكونان وحيدين بعيداً عن أعين الناس ، ففى إحدى هذه اللقاءات - بعد أن تبادلا المشاعر الطيبة وأحسا بالأنس - اعترفت سلامة له بمكانته فى قلبها ، وأنها تكن له الحب والمودة ، واعترف هو الآخر بحبه لها ومكانتها فى قلبه ، وحاولت سلامة أن تظفر منه بقبلة ، لكنه رفض - خوفاً من غضب الله ، وحرصاً على حرمة بيت صديقه وحرمة الصداقة ذاتها (٢) وكان جوابه عليها **" أنسيت الله يا سلامة "** (٣) .

وكأن هذا الموقف جعله يفكر فى مصير هذه العلاقة ، فهو لا يستطيع أن يتجاوز ما نشأ عليه من عبادة وتقوى وورع ، ولا يستطيع أن يظفر بحبيبته ، خاصة بعد أن علم أن موقف صديقه بن سهيل المالى فى حرج ، وأنه يتعرض لأزمة مالية تكاد تعصف به ، فلا يستطيع أن يأخذها هبة من صديقه بعد ذلك ، فعزم على الخروج إلى السوق سمساراً مقتدياً فى ذلك بأبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما - حينما كانا يعملان بالتجارة ، عساه أن يجمع المال اللازم لشراء سلامة يقول الكاتب " فابتسم عبد الرحمن " وقال :سأخرج إلى السوق وأشتغل سمساراً ، وقد جربت ذلك يا سلامة فنجحت فيه "فضحكت سلامة وقالت : والمسجد يا عبد الرحمن؟ "

---

(١) الرواية ، ص ٨٠ .
(٢) الرواية ، ص ٩٢ : ٩٦ .
(٣) الرواية ، ص ٩٧ .

قال لها : " للمسجد وقت ، وللسوق وقت ، ولك أنت يا سلامة وقت .. ولست أفضل من أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وقد كان أولهما تاجراً وثانيهما دلالا .. وإنهما لأفضل من أبى هريرة وسائر أهل الصفة الذين لزموا المسجد الحرام ولم يشتغلوا بالكسب " (١) .ويلاحظ أن باكثير يحاول أن يجعل من شخصية القس ، نمطاً محافظاً على سيرته وأصوله الدينية ، فأحياناً يستدعى ماضيه الصافى ليعرف موقعه وحاضره وأحياناً يجد سلوته فى المتغيرات الهائلة التى لحقت به ، وأودعت فى نفسه ، حباً للناس وحباً لكتاب الله ونشاطاً دينياً لم يكن بنفس الطريقة من قبل ، وفهماً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم – ويمكن القول أن ذلك هو هدف الكاتب من هذه الشخصية وهو الوصول بها إلى مرحلة التطبيق العملى لمبادئ الدين ، وعدم الوقوف والتحجر عند قشور الدين ، بل الفهم الواعى والإدراك البصير والتطبيق المتوازن – وقد عبر عن ذلك فى حوار دار بين القس وسلامة جاء فيه :

فنظر إليها عبد الرحمن فى وداعة وصفاء ، وقال لها فى تؤدة وهدوء : " إنى والله لأحار.. وإنى والله لا أدرى أشغلتنى يا سلامة عن الخير أم هديتني إليه ! ولله فى وفيك إرادة هو بالغها .. وإنى ما كنت أفكر فى الزواج حتى عرفتك ففكرت فيه ، وقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : **" النكاح سنتى ، فمن رغب عن سنتى فليس منى "** .. وإنى كنت أتلو القرآن وأقرأ فيه آيات السماوات والأرض والنجوم فما اهتز لها كما أهتز لآيات الوعد والوعيد ، حتى عرفتك يا سلامة فصرت أخرج فى السحر وأصلى فى العراء لأتمتع بجمال النجوم وأنظر فى ملكوت الله . وإنى كنت أرى المجان فأبغضهم

---

(١) الرواية ، ص ١٠٠ .

وأقسو عليهم وأقول لنفسي : كيف يترك الله هؤلاء ؟ حتى عرفتك فصرت أرثى لهم وأعلم أن لله حكمه فيهم كما قال فى كتابه : **ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً** " .

ويأتى هذا الحوار بمثابة الإقرار من الكاتب – على لسان الشخصية ، بأن العاطفة النبيلة تسمو بصاحبها إلى مراتب وجدانية وإيمانية عقلية ، وتجعله قادراً على فهم الواقع والتعامل معه من منطلق دينى يساعد على التطور ونبذ الجحود الذهنى ، وفى تطور آخر مرتبط بالحدث والشخصية ، ينتقل الكاتب بالأحداث إلى مكان آخر غير مكة حيث شهدت المدينة المنورة نهاية هذه الأحداث ، وذلك حينما بيعت سلامة ضمن ما بيع من أملاك " **ابن سهيل** " لسداد ديونه والتزاماته ، حينما بالغ فى النفقة والإسراف ومحاولة **عبد الرحمن** استردادها – بالاجتهاد فى جمع المال حتى يتسنى له شراؤها من سيدها الجديد ، لكن رسل **الخليفة يزيد بن عبد الملك** يسبقونه إلى شرائها وضمها إلى القصور الأموية ، وكان تصرف الكاتب موفقاً فى إنهاء هذه العلاقة مع وجود الأمل الكبير فى التلاقى يوم القيامة ، فختم روايته بحوار طويل جمع بين (١) سلامة والقس – تعاهدا فيه على ألا يفعلا ما يغضب الله ، واضعين نصب أعينهما قول الله تعالى :

" ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ " (٢) .

بل جعل هذه الآية أخر ما ردده الحبيبان لحظة الوداع والفراق، يقول الكاتب واصفاً هذا الوداع : " ونزلت سلامة عن النشز(*) ومشت تخترق الجمع حتى وقفت أمام هودجها ، فتلقاها مولاها ابن رمانة فصافحها مودعاً ، وتلاه ابن أبى عتيق فودعته شاكرة وجاء ابن سهيل فصافحها فقبلت يده ، وتقدم ابن أبى عمار فصافحها قائلاً :

---

(١) الرواية ، ص ١٧٢ : ١٧٦ .
(٢) الآية رقم ٦٧ سورة الزخرف .
(*) النشز : المكان المرتفع من الأرض وجمعه " نشوز " .

❖ . استودعك الله يا سلامة ! "

❖ فأجابت باكية : " أستودعك الله يا بن أبى عمار " .

❖ قال لها : " لا تنسى يا سالمة آية الذكرى "

❖ فقالت : " لن أنساها يا عبد الرحمن "

❖ قال : "ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ ..... "

❖ فقالت : " بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ "

❖ واستوت على هودجها فنهض الجمل البارك وتحرك الركب فتعالى صياح الجميع وطفقت سلامة تشير بيديها تحييهم، ووقعت عينيها على عبد الرحمن ابن أبى عمار فرأته ينظر إليها ويفتر ثغره عن ابتسامة تلمع بين الدموع وهو يردد: " إلا المتقين .. إلا المتقين .. " وكانت تلك آخر نظرة لسلامة فى عبد الرحمن ، ولعبد الرحمن فى سلامة ، وكانت هذه آخر كلمة سمعتها سلامة من عبد الرحمن " (١) .

❖ ويمكن القول بأن شخصية عبد الرحمن القس ، من الشخصيات العربية الواقعية التى نشأت فى رحاب الحرم الشريف ، وأخذت العلم والفقه عن شيوخه وعلمائه فى عصر بنى أمية فهى إفراز لهذا العصر ، ونفحة من نفحاته استطاع الكاتب من خلالها أن يلقى الضوء على بعض جوانب المجتمع الأموى ، ومكانة الشعر الغنائى فى ذلك الوقت وخاصة شعر الغزل كما استطاع الكاتب أن ينقل لنا صورة حية من خلال هذه الشخصية عن سلوك هذا العصر حيث انتشار الغناء والغزل ، وانتشار الزهد والتصوف ، على ذلك

---

(١) الرواية ، ص ١٧٩ – ١٨٠ .

يمكن أن نطلق عليها شخصية تراثية واقعية أقرب إلى الحقيقة إذ معنى واقعية الشخصيات أن يكون تصرف كل شخصية منها مطابقاً تماماً لما يحدث فى واقع الحياة أى أن هذه الشخصية لو كانت موجودة فعلاً فى الحياة لتصرفت تماماً التصرف الذى يذكره مؤلف القصة نفسه (١) ، والقس شخصية عايشها الكاتب فى جميع أحوالها وعايش عصرها وزمنها ، وتعامل معها من منطلق وجدانى ، يغلب عليه الطابع الرومانسى الحالم ، الذى يرى الكون جميلاً عندما يحب ، وتتسع مداركه الحيوية .

ولذلك يمكن الاعتماد على الرأى الذى يقول : إن " الشخصية القصصية بالنسبة للروائى مستمدة من أعمق ذكرياته وأصدق تجاربه ، ويتم تكوينها فى جو نفسى متعادل لا يشوبه الانفعال الحاد الذى يكون بمثابة الحرارة القاتلة بالنسبة للأحياء ولا الفتور الذى يتنافى مع طبيعة نفس الفنان ، فالشخصية القصصية إذن بالنسبة للكاتب شئ يحتضنه فى جو نفسى معين صالح لبعث الحياة " (٢) .

ب) شخصية المغنية الموهوبة (سلامة):

ومن الشخصيات النامية فى هذه الرواية – شخصية سلامة ، والتى تقاسمت البطولة مع عبدالرحمن القس ، وهى شخصية غنائية ، تعلمت الغناء وأتقنته وبرزت فيه وكان ذلك سبباً رئيسياً فى نشأة العلاقة العاطفية بينها وبين عبد الرحمن القس ، وباكثير قدم هذه الشخصية من عدة جوانب – فقدمها أمة مملوكة لأبى الوفاء أحد شيوخ مكة الذى اشتراها صغيرة لم تتجاوز الثامنة لتساعد أم الوفاء زوجه فى القيام بشؤون بيتها فترعرعت الجارية فى كنف هذا البيت الصالح ، وأحبتها أم الوفاء فأحسنت تربيتها

(١) القرآن والقصة الحديثة ، ص ١١ ، محمد كامل حسن المحامى .
(٢) دراسة أدبية عن أعمال محمد عبد الحليم عبد الله ، ص ٩٩ ، محمد حسنين قشيو ط .

وعلمتها سوراً من القرآن ، ولم تأل جهداً فى البر بها والعطف عليها .. وكان أبو الوفاء يحنو عليها أيضاً ويرفق بها ، وكانت تحترمه وتجله ، إلا أنها لم تكن تتطلق له تطلقها لأم الوفاء وذلك لما يكسو طلعته من المهابة والوقار ولقلة عشرتها له " (١) .

وسلامة من صغرها صبيحة الوجه ، فصيحة اللسان ، حلوة الحديث ، متوقدة الذهن ، لعوباً تميل إلى الدعابة والنكتة ، وكانت جميلة الصوت ، فى صوتها رخامة وحنان ولو نشأت فى بيت آخر غير هذا البيت الصالح بين أم الوفاء وأبى الوفاء لما بقيت وقد جاوزت الرابعة عشر من سنها ، تخدم المنزل وترعى الغنم ، وكانت على حبها لمولاتها ومولاها تشعر فى قرارة نفسها شعوراً مبهما ، بأنها لم تخلق لهذا البيت ، وأنها خلقت لشئ آخر لا تعرفه تمام المعرفة ، ولكنها تحس به إحساساً عميقاً ، وكانت تميل إلى الغناء فلا تكاد تسمع لحناً حتى تحفظه " (٢) .

وباكثير فى طرحه لهذه الشخصية – قد أولى عناية خاصة بموهبتها الغنائية ، فلم يضع أمامها العقبات التى تعترضها بل أفسح لها المجال تماماً لإتقان هذه الميزة الموجودة فيها حتى أصبحت حرفة تحترفها ، بلغت بها أوج الشهرة ، فحينما تعلمت الغناء على أيدى الراعى حكيم وهى ترعى الغنم ، وأخذت تردد ما تحفظه من ألحان حاول أبو الوفاء أن يكفها عن ذلك فلم يفلح فاضطر لبيعها لأحد وجهاء مكة وهو ابن سهيل ، الذى كان مولعاً بالغناء والشعراء ومجالس اللهو والطرب ، فدربها وجاء لها بالشعراء والموسيقيين حتى أجادت وتفوقت ، ووجدت الطريق مفتوحاً أمام طموحاتها وأحلامها الغنائية .

كذلك قصة الحب التى وقعت بينها وبين عبد الرحمن القس ، كانت من دوافع حبها للغناء وإتقانه والوصول فيه إلى أقصى الدرجات ، لأنه كان همزة الوصل بينها وبين

---

(١) سلامة القس ، ص ٢١ – ٢٢ .
(٢) السابق ، ص ٢٢

حبيبها ، وعندما أفلس مولاها ابن سهيل وبيعت لسداد ما عليه من ديون ، اشتراها رجل من آل رمانة من المدينة المنورة ، كان يشترى الجوارى ويعلمهن الغناء ثم يعرضهن للبيع بأثمان مضاعفة .

فيمكن القول أن باكثير يبرز من خلال هذه الشخصية الأهمية القصوى للغناء فى هذا العصر وشيوعه فلا توجد عقبات أو موانع أمام من يحترف الغناء ، ويقول الشعر وخاصة الغزل الذى يصلح لأن يكون ألحاناً تتناقلها الرواة والركبان حتى أن نهاية هذه الشخصية تؤكد ذلك حيث انتهى بها الأمر والمطاف فى قصور بنى أمية ، تنشد وتغنى فهى ليست شخصية نامية فى ذاتها بقدر ما هى موهبة غنائية متطورة ، وجدت السبيل أمامها مهيأة .

٢- أبرز شخصيات رواية (الثائر الأحمر) :

العدل من وجهة نظر على أحمد باكثير ، يرتبط بالإصلاح الاجتماعى ، ويرتبط أشد الارتباط بصلاح النظام الرأسمالى ، وضرورة تطبيق النظم الإسلامية الصحيحة التى تحمى المجتمع من التردى فى هوة التيارات المستوردة والمضللة للشعوب الإسلامية والتى تجعل أبناءها غير قادرين على التمييز بين الحق العادل وبين الحق المغتصب والكاتب وإن كان يبشر فى روايته " الثائر الأحمر " بهزيمة المشروع الشيوعى الرأسمالى الذى يجعل من الإنسان مجرد آلة فى عجلة الإنتاج ، متناسياً مشاعره وأخلاقه ودينه وعاداته وتقاليده الموروثة ، فإنه لا يقتصر على هدم هذا المشروع ، ولكنه يقدم الوجه الآخر الصحيح ، الذى ينبغى أن يكون عليه الفرد المسلم ، حيث أقر الإسلام نظاماً اجتماعياً صحيحاً ، يعود بالخير والنفع لجميع طوائف الأمة ، إذا كان المرجع الأساسى هو الشرع الإسلامى ، والكاتب فى روايته **" الثائر الأحمر"** يحاول إسقاط حركة القرامطة

فى العصر العباسى على الحركة الشيوعية التى اجتاحت أوربا الشرقية وبعض دول الشرق الأقصى مقدماً النموذج الأمثل لحياة الإنسان الصحيحة . ومتنبأ بالسقوط والاندحار للمشروع الشيوعى كما سقطت واندحرت الحركة القرمطية . وفى سبيل هذا التنبؤ يستدعى الكاتب الأحداث التاريخية المتعلقة بالحركة القرمطية فى العصر العباسى ويربط بين أهدافها وبين أهداف الحركة الشيوعية الرأسمالية التى انتشرت فى كثير من بلدان العالم ، وتبنى أفكارها الكثير من أبناء البلاد الإسلامية بزعم تحقيق التوازن الاجتماعى بين الطبقات الشعبية المختلفة.

ويعلل الكاتب من خلال الأحداث والشخصيات السقوط القرمطى ، ويقرن ذلك السقوط باندحار المشروع الشيوعى وتقلصه ، وينتصر للموروث العقائدى والموروث الإنسانى ، فيقدم الحلول التى تعين على تحقيق العدل الاجتماعى والأخلاقى من خلال تقديم النموذج الإسلامى الصحيح ، فالزكاة ركن أصيل من أركان الإسلام الأساسية ، إذا عطلت وجد الخلل الاجتماعى ، وكثر الفقر ، وازدادت الهوة السحيقة بين الفقراء والأغنياء كذلك الرضا بالرزق يجنب المسلم كثيراً من الحقد والكراهية ويقربه من الله تعالى .

ويقدم باكثير أشخاصه فى هذه الرواية " **الثائر الأحمر** " متعلقين بالإصلاح والثورة على رأس المال ، ومتصارعين مع أنفسهم ، فهم من البداية يشعرون بالتهميش والضآلة ، يعملون ويكدون مقابل القليل من القوت الذى لا يفى بالحاجة ولا يساعد على العيش ، ويقسم الكاتب روايته إلى أربعة أسفار ، كل سفر مقدم بآية قرآنية ، ترتبط فى معناها بنمو الشخصية المحورية وصراعها مع الواقع ، فالسفر الأول صدره بقول الله تعالى : " وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا " (١)

(١) سورة الإسراء ، آية (١٦) .

ويفسر قوله تعالى : " المحيط الذى نشأت فيه الشخصية ، والواقع الذى يدل على العصيان الموجود داخل المجتمع ، إذ هو واقع ملئ بالأغنياء المترفين المستهترين والمتسكعين فى الضلالة ، الذين يضيعون الحقوق ، ولا يعبئوون بفقراء ولا بائسين ، وتعتبر الآية مفتاحاً لفهم الشخصية ، والوقوف على أسباب ثورتها ، حيث دلائل الفساد والجو المهيأ لوقوع الإنسان فريسة الضلال والفسوق ، وقد صور الكاتب بعض ملامح هذا المجتمع البالى فهناك الأغنياء الذين يمتلكون مساحات كبيرة من الأرض ، ويسيطرون على مقدرات الناس ، وهناك الفقراء الذين يعملون لحساب الأغنياء وهم محرمون ومشردون .

وفى السفر الثانى : نجد الكاتب قد صدره بقوله تعالى :

" وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ "(١)

وهو تصدير مناسب لتطور الشخصية الثانية فى الرواية " **شخصية عبدان** " إذ أتاه الله العلم فحور وغير وبدل وانسلخ من تكليف الله تعالى له ، وانحرف وراء أهوائه الشخصية فكان جزاءه الشتات والضياع والانحراف الأخلاقى والدينى والعقائدى .افتتح السفر الثالث :

بقوله تعالى :

" إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ "(٢) .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٧٥ ــ ١٧٦

(٢) سورة النحل، الآية (٩٠) .

التى يدل معناها على الأمر بإقامة العدل وبالإحسان وإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه وينهى عن الفحشاء والمنكر والظلم " (١) ، ويضع الكاتب هذه الآية فى هذا الموضع لما اشتد إيذاء الأغنياء وبخلوا على الفقراء وذوى القربى ، فانتشرت الفحشاء وعم الفساد بين الناس.

وصدر الأحداث فى السفر الرابع : بقول الله تعالى :

" وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ " (٢)

ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون . الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شئ وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم " (٣) .

وتشير الآيات الكريمة كما جاء فى المصحف المفسر أن " ليس الذين فضلهم الله فى الرزق على غيرهم بمعطى مماليكهم الرزق المقسوم لهم ، بل معطيهم رزقهم هو الله نفسه وإنما جعل رزقهم تحت أيديهم فهم وسطاء لا غير ، فاستوى إذن المالك والمملوك كلاهما عيال على الله .

وأن الله تعالى ضرب المثل من أنفسهم ، فالعبد المملوك العاجز عن الكسب والتصرف ، والرجل الذى أغدق الله عليه رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سراً وعلناً ، هل يستويان ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ، وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أخرس

---

(١) المصحف المفسر / محمد فريد وجدي ، ص ٣٥٨ – الشعب ..
(٢) سورة النحل ، الآية (٧١) .
(٣) سورة النحل ، الآية ٧٥ – ٧٦ .

لا يقدر على شئ من الأعمال لنقص قواه العقلية ، وهو عالة على ولى أمره ، إلى أى جهة يرسله لا ينجح ، هل يستوى هو ورجل تام العقل ، ذو فهم وكفاية ، يأمر بالعدل والإحسان وهو على صراط مستقيم ؟ " (١) .

ويتعلق هذا المعنى بالأحداث ، حيث ناقش الكاتب فى هذا الموضع قضية الرضا وأن الله تعالى هو الرزاق ذو القوة المتين ، وأن الخلق كلهم سواء عند الله فى الرزق فلا يتبرم أحد ولا يضجر، طالما أن الله تعالى مقسم الأرزاق على خلقه .

وإذا أردنا أن نربط بين الآيات القرآنية وبين أحداث الرواية ، نلاحظ أن هناك اتفاقاً كبيراً بين هذه الآيات وبين نتائج الأحداث ، وهذا مما يؤكد دور الكاتب فى التحذير من المذاهب الغربية ، التى لا تتناسب مع القيم الإسلامية والروحية ، ويؤكد أيضاً على التفاهم والتناغم بين الشخصيات والكاتب ، وأنه عاشها فى كل مراحلها المختلفة وتبين حقيقتها ، فجاءت موازية للأحداث ، بحيث لا يشعر القارئ بأنها مصنوعة لأداء وظيفة معينة ، رغم اختلاف المفهوم الثورى لديها .

ومن الملاحظ أيضاً أن هذه الآيات الكريمة والتى وفق الكاتب فى توظيفها كشفت عن النواحى النفسية والخلقية للشخصيات وما تنطوى عليه من خير وشر وجمال وقبح ونور وظلام .

وتعنى الثورة فى رواية " الثائر الأحمر" البحث عن الخلاص من أوزار المجتمع وفرض سياسة جديدة ، تكون غاية فى معالجة المشاكل الإنسانية والاجتماعية والأخلاقية وهى فى سبيل ذلك قد اتخذت طريقاً غير مشروع ، إذ حاولت طمس نظم ثابتة وراسخة

---

(١) المصحف المفسر ، سورة النحل – الآية ٧٥ – ٧٦ ، ص ٣٥٥ .

وإحلال أفكار ونظم فردية ذاتية متناقضة وغير مستقرة ، تعتمد على السلب والنهب والبطش برأس المال ، وإن كانت فى أحيان كثيرة تحاول الرجوع إلى طبيعتها المستقيمة .

والكاتب من خلال طرحه موضوع الثورة ، يعالج مشاكل متعددة أفرزها المجتمع الممزق فيطرح قضية الفقر والاحتكار ، احتكار الأرض وأسباب الحياة ، ويطرح قضية الاستبداد والسيادة ، وفى المقابل يتحدث عن الرضا والقناعة ، وفى خلال ذلك تبدو مواقفه المتشعبة إزاء الأحداث ونحو البحث عن العدل والاستقرار الاجتماعى متماسكة تميل دائماً نحو الخير المتمثل فى ضرورة الاعتصام بدين الله وشرع الإسلام القويم وأشخاصه ليست متقاربة فى مفهومها للقضية الثورية ، فبعضهم يبحث عن العدل الذى يفتقده ، والآخر يبحث عن الحرية التى يرجوها ، ورغم أن أشخاصه لديهم قدر من العلم والدين نجد أنهم لا يطرحون قضيتهم من منظور دينى ، بل إنهم استخدموا الدين وسيلة من الوسائل التى يمكن التأثير بها ، والوصول من خلاله إلى مرتبة سامية يحلقون بها فوق الجميع ، وتكون لهم السطوة والكلمة العليا .

ومما يحسب للكاتب فى تناوله للشخصية وتطورها بداية من السقوط والانحراف الأخلاقى والدينى ، أنه يحاول تعليل ذلك السقوط فيرجعه إلى الفراغ الدينى ، والتهاون فى تطبيق الشرع ، وخاصة تعطيل ركن الزكاة ، وجشع الأغنياء واستبدادهم كذلك نقد الشخصيات نفسها لهذا الانحراف ، واستيقاظ ضمائرهم فى بعض الفترات ، ويرجع السبب فى طرح باكثير للثورة القرمطية أو الاشتراكية ربما لضجره وضيقه بالتيار الشيوعى فى الوطن العربى ، وفى مصر فى فترات مده المختلفة ، فكثيراً ما عابوا عليه اتجاهه

الإسلامى وأطلقوا عليه " **على إسلامستان** " ، فكان يقول رداً على هؤلاء : " **إنه لشرف عظيم لى أن أتهم بالإسلامية فيما أقدمه من أدب** " (١) .

أ) شخصية الثائر الباحث عن العدل (حمدان قرمط):

وشخصية الثائر الباحث عن العدل – يمثلها فى الرواية " **حمدان قرمط** " وقدمه الكاتب فى مستويات ثلاثة "

المستوى الأول : قدمه من الناحية الاجتماعية والنفسية ، فهو عامل آكار عند ابن الحطيم ، أحد أغنياء الكوفة وساداتها ، وعائل لأسرة مكونة من أمه وأختيه " **عالية وراجية** " وزوجته أم الغيث وولديه الغيث وفاختة ، ويصف الكاتب فى هذا الجانب معاناته النفسية والجسدية ، من جراء عمله أجيراً وحرمانه الشديد من جراء الاستبداد والقهر وعجزه عن توفير العيش الكريم لأسرته رغم كده وعرقه وعمله المتراصل ، فيقول واصفاً تلك المعاناة : " ولكنه ما لبث أن شعر بالأسى يعصر قلبه فترتعش له أوصاله حين يثب به خاطره إلى يوم الحصاد ، فيتذكر أن ليس له من هذا العمل الدائب والجهد الناصب الذى يقوم به وأهل بيته طول يومهم فى لفح الهجير وتحت الشمس المحرقة وزلفاً من ليلهم متعرضين للبرد القارس فى ذلك الجو القارى ، إلا نصيب ضئيل لا يكاد يقوم بأودهم من جشب الطعام وخشن الملابس ، ولا يضمنون به أن يمر عامهم ذاك دون أن يجرعوا يوماً لا يجدون فيه حتى ذلك العيش الكفاف ، حين يلم بأحدهم ما يقعده عن العمل من مرض أو مشغلة على حين يذهب معظم ما ينتجه عملهم المتواصل إلى خزائن شاب قاعد عن العمل مشغول بملذاته وملاهيه فى قصوره المتعددة بالكوفة وجواسقه المنتثرة فى ضواحيها ، لا يدرى كيف ينفق ماله من كثرته ، أو كيف ينفق وقته من فراغه

(١) على أحمد باكثير فى مرآة عصره – محمد أبو بكر حميد ، ص ١١٤ – من مقال للدكتور نجيب كيلانى .

ولا يحول عليه حول حتى تضاف إلى أملاكه الواسعة أملاك جديدة يعمل فيها عشرات من أمثال حمدان وأهله ليسدوا جوعهم وليضاعفوا ثروته أضعافاً مضاعفة ، ذلك هو سيدهم ابن الحطيم مالك الأرض التي يعمل فيها حمدان والأراضي الواسعة حولها التي تمتد من جهاتها الأربع أميالاً وأميالاً حتى لا يكاد العاملون فيها يعرف بعضهم بعضاً " (١) ويصف الكاتب حمدان من الخارج وصفاً حسياً يعكس مدى حنقه وضيقه بنفسه وبمجتمعه ممهداً للثورة التي تدور في داخله.

يقول الكاتب : " كان حمدان في نحو الخامسة والثلاثين من عمره قوي البنية جلداً على العمل، بشوشاً لا تكاد الابتسامة تفارق شفيته حتى في أحلك الساعات وأهول الخطوب ، ولكنه يحمل وراء هذا الخلق الرضي ، وهذا الثغر البسام ، قلباً يضطرم بالثورة على تلك الأوضاع التي يراها جائرة لا يجوز لبني جلدته أن يتحملوها صابرين ، ولا يعتبرها إلا فترة من فترات الظلم والاضطراب لا يمكن أن تستقيم عليها حياة الناس ، فلا ينبغي أن تستمر طويلاً ... كان يعتقد أن ما بناه المال والنفوذ لا يمكن أن يهدمه إلا المال والنفوذ فاني له هذان وهو لا يكاد يملك عيشة الكفاف لنفسه ولعياله إلا بمشقة وجهد ، وبعد أن يقدم لسيده ابن الحطيم أضعاف أضعاف ذلك من كد عامهم .

إنه ليسائل نفسه أحياناً : أحر هو أم رقيق ؟ " (٢) .

ويلاحظ أن الكاتب قد استغرق كثيراً في رسم الملامح العامة لحمدان قرمط فوصف البيئة والحالة الاجتماعية والأخلاقية ، وقدم للحالة النفسية السيئة التي يحياها أمثال حمدان من شتات اجتماعي أدى إلى إذكاء نار الثورة ، لكن أي طريق يتخذه

---

(١) رواية الثائر الأحمر – علي أحمد باكثير ، ص ٥ .
(٢) السابق ، ص ٩

للوصول إلى تحقيق التكامل الاقتصادى والاجتماعى ؟ إنه الطريق الانتقامى من جملة الأغنياء صالحهم وشقيهم دون تفريق، هو هدفه الأساسى للقضاء على رأس المال .

المستوى الثانى : ويعد بداية الثورة الفعلية ، إذ تعلق هذا التطور فى شخصية حمدان بتطور الأحداث نفسها ولم يعد الأمر مجرد محاربة فى الأزقاق بل تعداه إلى فقدان الأمن والطمأنينة ، حيث تعرضت "**عالية**" للاختطاف على يد أتباع ابن الحطيم ، وتعرض حمدان لهزة نفسية عميقة ، خاصة بعد أن لجأ إلى الوالى فلم يهتم بأمر أخته ، ولجأ إلى سيده صاحب النفوذ فلم يجد ما كان يأمل فيه من نصر أو إعانة ، فكانت ثورته العارمة وتبدل طباعه وأخلاقه ، خاصة بعد تأكده أن سيده هو مختطف أخته .

وأولى مظاهر هذه الثورة انضمامه لجماعة العيارين ، وهى طائفة أفرزها المجتمع وكانوا يسطون على الأغنياء وينهبون أموالهم ، يقول الكاتب فى صفاتهم : " إن العيارين يعد لمعرفون بالشهامة والنجدة وشدة البأس والمروءة ، وإنهم ليعتدون على القوى ، وينصرون الضعيف ، يسطون على مال الغنى ويعفون عن مال الفقير ، وإنهم يجيرون النساء ويغارون على الحرمات . ولئن كان بينهم من يشذ عن هذه الخلائق الكريمة ، فالشواذ فى كل قوم وكل قبيل " (١) .

وقد وجد حمدان ضالته بانضمامه إلى هذه الطائفة ، وقد أعانه على ذلك حقده الطبقى وثورته العارمة ، وصديقه عبد الرؤوف ، يقول الكاتب فى حوار ضم حمدان وعبد الرؤف والشيخ بهلول السمرقندى ، مستعرضاً كل قضايا المجتمع والأسباب الحقيقية وراء عمل العيارين :

---

(١) رواية " الثائر الأحمر" على أحمد باكثير ، ص ٢٣ .

❖ قال الشيخ : " فقد عرفت مصيرها الآن ، إنها في قصر ابن الحطيم بالكوفة وإن ثمامة هو الذى اختطفها له ، لمعتصم هناك فى القصر "

❖ فجن جنون حمدان وصاح وهو يتميز من الغيظ : " والله لأسرين الليلة إلى الكوفة فلأقتحمن القصر وأستنقذن أختى !"

❖ خفض عليك يا حمدان ، فليس ذلك بالأمر الهين . إن للقصر لحراساً أشداء .

❖ فلأشكونه إلى السلطان !

❖ افعل إن شئت ولن تجديك الشكوى شيئاً . إن للمال لسلطاناً على السلطان .

❖ فماذا أصنع ؟ قولوا لى ماذا أصنع ؟

❖ كن عياراً حارب معناً طغيان المال . كن معنا حرباً على الأغنياء ، تنقص أموالهم فتنقص من قوتهم وطغيانهم ، انتقم منهم لنفسك ولآلاف المظلومين أمثالك اسلب منهم ما استطعت كما يسلبون الفلاح ثمرة كده والأجير جل أجره على جهده والفقير معلوم حقه .

❖ فصاح حمدان حينئذ: " ويل للمال! ويل للأغنياء! خذونى معكم . أنا منكم! أنا منكم! (١)

المستوى الثالث : ويبدأ باتصاله بالشيخ حسين الأهوازى ، الذى يدعو إلى مذهب الإمام المعصوم ، ويبشر بعهد جديد يقوم على العدل الشامل ، وصادف ذلك هوى فى نفس حمدان واتفق مع ثورته الداخلية على رأس المال وضرورة القضاء على المال وأصحابه وخلق نظام سياسى واقتصادى واجتماعى هدفه الأول هدم النظام الإسلامى ، واهتم حمدان بهذا المذهب وصاحبه وبدأ يدعوله العامة والخاصة ، ويجلب المال من الناس

(١)رواية " الثائر الأحمر" على أحمد باكثير ، ص ٨٤ .

ويأمرهم بأن الله فرض عليهم خمسين صلاة فى اليوم والليلة ، ويعتبر هذا بداية السقوط الحقيقى للشخصية وانحرافها وراء الأهواء الشخصية والشهوانية وأولى مراحل تأسيس دولة جديدة تقوم على أسس تعتمد على الإباحية والتحرر من القيود الأخلاقية والدينية والانطلاق نحو الرذيلة الفاحشة ، وينتهى الحال بحمدان فى دولته الجديدة إلى التمزق والتشرذم النفسى بعد ما وجد كل ما هو إنسانى ونبيل قد تلاشى واختفى من حياته ويلاحظ أن الكاتب قد أسهب كثيراً فى وصف السلوك الشخصى لأصحاب هذا المذهب قارناً ذلك بتصرفات الشيوعيين وإباحيتهم ، وبعد أن سئم حمدان من نفسه ومن مذهبه عاد إلى صوابه ، فأطلق الناس وحررهم وفتح لهم حدود دولته ليعودوا تائبين إلى الخليفة مطهراً نفسه من كل رجس اقترفه بسبب ثورته على رأس المال وبحثه عن العدل، وفى عودة حمدان إلى صوابه ورجوعه عن غيه ، انتصار للحق والمبادئ الأخلاقية السامية وانتصار للفطرة الإنسانية السليمة ، وهذا هو هدف الكاتب من تقديم هذه الشخصية ، التى عاشت فى كنف الفقر والبؤس والحرمان ، فاشتعلت ثورتها على الأغنياء بحثاً عن العدل فمارست كل ما هو مباح وغير مباح ، ثم عادت مرة أخرى مهتدية إلى طبيعتها وفطرتها .

وقد وفق الكاتب فى عرض الشخصية وانتقائها لتحمل كثيراً من الأفكار المتعلقة بالدين والأخلاق والفضيلة والقيم الروحية والمعنوية ، خاصة حينما كان يقابل ذلك بما يدعو إليه المذهب الجديد ، كما وفق فى عرض التجاوزات والانحرافات التى كانت تقبلها الشخصية تارة وترفضها تارة أخرى غير مقتنعة ، كأنه يريد أن يقول هكذا المذهب الشيوعى يستهوى الناس أحياناً فى الظاهر ، لكنه فى النهاية يصطدم مع الفطرة الإنسانية السليمة ، فيكون مصيره السقوط والاندحار.

ويلاحظ أن الأحداث والشخصيات تنمو فى ظل نظام سياسى متلاشى يعانى من شبح السقوط والانهيار، حيث اختار الكاتب الفترة الزمانية المواكبة لانهيار الدولة العباسية وتوزع قوتها العسكرية والاقتصادية بين المحافظة على الملك وبين محاربة المناوئين والخارجين على سلطانها، وهذا كله جعل الزمان والمكان عنصرين أساسيين فى التكوين البنائى للشخصية.

والكاتب فى رسمه للشخصية واستغراقه فى تحديد مكوناتها النفسية والاجتماعية يتوقف كثيراً عند ذكر التفاصيل الدقيقة المتعلقة بحياتها وصراعها ضد الفقر والحرمان وضد الطبقة المسيطرة على مناحى الحياة، فضلاً عن حديثه المتعلق بالنواحى الوراثية فى الشخصية والتأكيد على عدم انتمائها كلية للجنس العربى الأصيل، فحمدان وأخوته من أصل قرمطى يتميز بحمرة العينين والبشرة الشقراء جاء ذلك فى حديث أم حمدان لابنتها راجية - يقول الكاتب :

" وانصرفت راجية لتدعو أخاها وأختها وهى تقول بلهجة لا تخلو من التبرم : سمعا لك يا أماه سأظل أعمل فى حر الشمس حتى تصبح عيناى بلون الدم : " فابتسمت العجوز ابتسامة خفيفة وهى تشيح راجية بعينيها وطفقت تقول : " ومن يشابه أباه فما ظلم. رحم الله أباك! ما لقبه الناس بقرمط إلا لحمرة عينيه " (١).

ب) الشخصية العبثية (عبدان الأهوازى) :

(١) رواية الثائر الأحمر – على أحمد باكثير ، ص ١٤.

ويمثلها فى رواية الثائر الأحمر "**عبدان الأهوازى**" ويمكن أن يطلق عليه النموذج العبثى المفرط فى عبثيته ، فعبثيته لا تتعلق بالأمور الشخصية فحسب ، بل يمتد الإفراط فى العبث إلى الانسلاخ من الدين والعقيدة الإسلامية الصحيحة ، وابتداع نظام جديد يضمن له ولأتباعه الحرية الكاملة من الالتزامات الدينية والأخلاقية ، والفرار من قيود العبادة والتكليفات الشرعية ، التى هى سر سعادة الإنسان .

وعبدان الأهوازى شخصية مترددة تتصف بالجبن ، تتظاهر بالسعي للبحث عن تحقيق التوازن الاجتماعى بين الطبقات المختلفة فى ظل نظام مبتدع يعادى الإسلام ويجتهد فى الابتعاد عنه وقد قدم على أحمد باكثير هذه الشخصية من وجهة نظر خاصة ، إذ ربط بين قول الله تعالى :

"وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ" (١)

وبين أفعال هذه الشخصية وما ينتج عنها من مواقف وتصرفات سلبية هزيلة لا تستطيع أن تفى بوعودها ، ولا أن تحمى نفسها ، ولا تستطيع أن تسيطر على أهوائها وانحرافاتها الأخلاقية ، وامتدت هذه السلبية إلى مركزه في قيادة الدعوة للمذهب الجديد وعلاقاته مع الآخرين ، وفى عدم السيطرة على زوجته أخلاقياً . وخيرا فعل باكثير حينما جعل شخصية عبدان منحصرة فى إطار المنسلخ عن دينه وعن آيات الله وعلمه .

والكاتب بفضحه تصرفات هذه الشخصية يقدم الصورة الحقيقية للشيوعية وأنصارها وما هم عليه – فيقول هؤلاء هم دعاة الحرية والاشتراكية لا دين لهم ولا خلق

(١) سورة الأعراف ، الآية رقم (١٧٥) .

ولا مبادئ حقيقية ذات قيمة يدعون لها ، وإنما يدعون لتحقيق رغباتهم بعيداً عن قيود الدين وتكليفات الشرع .

وفي سيرة هذه الشخصية لم يتجن الكاتب على مصيرها ، ولم يقدمها فاجرة فاسقة منذ البداية بل قدمها شخصية بسيطة من مجتمع متواضع ، تعاني مثل غيرها من الفوارق الاجتماعية بين الطبقات المختلفة (١) .

فقد نشأ عبدان بعد موت والده ، في ظل رعاية ابن عمه حمدان ، فقام بحمايته وتوجيهه نحو التجارة والكسب المشروع ، حتى استطاع أن يعتمد على نفسه وعلى ما يأتيه من تجارته ، واستطاع أن يدبر المال الكافي للزواج من ابنة عمه " **عالية** " .

ويمكن القول بأن تطور هذه الشخصية ارتبط بتطور الأحداث وتقديمها ، وكان تطورها منذ البداية إيجابياً مقترناً بالبحث عن العدل الاجتماعي وتحقيق الأمن بين الناس ، وذلك حينما اختطفت "**عالية** "خطيبته والتي كانت ستزف إليه بعد قليل فكانت سبباً في اشتعال ثورته وتورطه مع ابن عمه حمدان في مقتل الشرطيين ، ثم هربه متنكراً وباحثاً عن مأوى وملاذ بعيد ، فكانت وجهته بغداد ، فالتحق بدور العلم طالباً له حتى عرف الكثير من أمور الدين والفقه والشرع ، وخاصة ما يتعلق بالمعاملات والحقوق التي تنظم حياة الناس ، وبدأت مرحلة جديدة في حياته ، يبحث فيها عن العدل وتطبيق الشرع بين الناس ، وخاصة الزكاة وحقوق الفقراء في مال الأغنياء ، فكان يتحدث عن هذه الأمور في جلساته مع شيوخه وزملائه ، فضلاً عن عدائه القديم للأغنياء وما يستأثرون به لأنفسهم عن بقية الناس .

---

(١) الثائر الأحمر – علي أحمد باكثير ، ص ١٦ : ٢٥ .

فكان يقول لهم مثلاً : " ألا ترون أن الأغنياء لو أدوا حق الزكاة فى أموالهم لما بقى فى أرجاء الدولة من يجوع أو يعرى ؟ "

فيقولون له:" بلى "، فيقول لهم: " ففيم يعرىَ الفقراء ويجوعون؟ لم ترك هذا الركن معطلاً ؟ " فيقولون له: " ماذا نصنع؟ قد فسد الزمان ، إن علينا تبيان الأحكام وعلى غيرنا تنفيذها ، فإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن " فيقول لهم. " فلم لا يقوم أولو الأمر بتنفيذه وعقاب من يخالفه ؟" ، فيقولون له: " هذا سؤال يوجه إليهم لا إلينا ، نسأل الله أن يخمد نيران الفتن فى أطراف الدولة حتى يتفرغ رجالها للنظر فى إصلاح أحوال الناس" فإذا قال لهم : " أليس عليكم أن تنكروا هذا الفساد وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر؟ " قالوا له : " حسبك ياعبدان دعنا نمض فيما نحن فيه من درسنا هذا " (١).

ويلاحظ أن ثورة عبدان على الواقع المحيط به وعلى عدم تطبيق الشرع ، لم تكن من أجل سعادة الفقراء أو حرصاً على تطبيق أحكام القرآن ، بل حقداً على الأغنياء وثورة على رأس المال ، ولو تمثلت له طريقة أخرى غير الزكاة والصدقة ، لنادى بها من أجل إنقاص مال الأغنياء .

وهذه النزعة لدى عبدان جعلته معبأ نفسياً واجتماعياً ضد كل من يملك المال وجعلته يقحم نفسه فيما لا يستطع تحقيقه ، بل إن فى انصرافه عن أبواب الفقه الأخرى التى لا تهتم بالمعاملات وتنظيم حياة الناس ، ما يؤكد أن دعوته ليست خالصة مثل دعوة العالم الكبير ابى البقاء البغدادى حينما جمع الناس وطالب بحقوقهم من الخليفة وأولى الأمر.

---

(١) الثائر الأحمر ، ص ١٠٥ .

يقرر ذلك ما كان يقوله حينما يلومه أساتذته على ترك مسائل الفقه الأخرى : " مالى ولأبواب الحيض والاستحاضة والطلاق والعدة أضيع فيها وقتى وأشغل بها قلبى عن فهم القسطاس الذى عليه مدار حياة الناس وبه قوام سعادتهم ؟ " (١) .

وفى أتون هذه الصراعات والانقسامات النفسية لعبدان ، وبحثه المستمر عن الطريقة التى يستطيع بها أن ينتقم من الأغنياء ، وأن يقضى على سلطان المال واسترجاعه الذهنى لحمدان بن عمه وحالته الاجتماعية المتردية ، نراه يجد ضالته حينما جاءه جعفر بن أحمد الكرمانى، الذى يعتبر اتجاهاً جديداً وتطوراً نحو السقوط فى شخصية عبدان ، فقد غرس " الكرمانى " فى نفس عبدان الاعتقاد بضرورة البحث عن مذهب جديد وعقيدة أخرى ، يكون فيها حرية الإنسان وخلاصه من قيوده وعاداته وتقاليده الموروثة .

وقد صور باكثير أساليب أولئك فى جذب العامة إليهم وإلى مجالسهم وألقى الضوء على أوصافهم وميولهم وقدرتهم فى التأثير على الناس بما يملكون من ثقافات ومعارف متعددة لا تقف عند حد علم معين ، ومدى تأثير ذلك على عبدان وشوقه الشديد إلى مثل هذه المجتمعات .

يقول الكاتب مصوراً أول مجلس شهده عبدان :

- " قد جئتكم بعبدان الأهوازى وهو أخ لنا ، نير الذهن ، مرجو النفع ، ولا شك عندى أنكم ستسرون بمجالسته "

فقالوا : **" أهلا ومرحباً "** .

---

(١) الثائر الأحمر ، على احمد باكثير ، ص ١٠٣

ثم سماهم له واحداً واحداً ، فإذا فيهم الشاعر والأديب والعالم والفيلسوف والموسيقى والشطرنجى والطبيب والكحال ، ونفر من أهل الصناعة والحرفة ، وأديرت عليهم أكواب بعضها من النبيذ وبعضها من شراب الورد ، فأخذ كل واحد منهم ما يروق له ثم أصابوا من النقل المنثور أمامهم فى أوان جميلة من الصينى الفاخر.

ودار الحديث بينهم فأخذوا يتباحثون ملياً فى قدم العالم وخلود المادة ، وعبدان يصغي إلى آرائهم المختلفة باهتمام ، وقد أعجبه أدبهم فى الجدل والمناظرة ، إذ كان أحدهم يدلى بحجته وينقض مذهب صاحبه دون أن يصخب أو يثور ، وقد جلس واحد منهم خارج الحلقة فى ركن من الغرفة وبين يديه الكاغد والمحبرة ، وهو منهمك فى الكتابة لا ينقطع عنها كأنه يدون أحاديثهم ، ثم انقطعوا عن حديث الفلسفة ، واخذوا فى قص الملح والنوادر ورواية الأشعار ، ومازالوا كذلك حتى جاء أوان انصرافهم قبيل منتصف الليل . " (١)

ويلاحظ أن الكاتب ركز اهتمامه على الأمور المتعلقة بالمذهب الجديد ، والتى هى فى حقيقتها الوجه الصحيح للشيوعية ومظاهرها المختلفة من حيث النظر إلى الحياة وتنظيم شؤون الناس وعلاقاتهم ، وظلت شخصية " **عبدان** " تدور فى هذا الفلك المضطرب لا ترفض شيئاً ولا تناقش أمراً لا يتمشى مع طبيعة الفطرة الإنسانية السليمة ، وإنما ظلت تتمشى مع كل الأوضاع طالما أن ذلك سيحقق لها القضاء على رأس المال والانتقام من الأغنياء .

فمن القضايا التى أبرزها الكاتب من خلال هذه الشخصية ، قضية الزواج فى ظل المذهب الجديد مذهب العدل الشامل .

---

(١) الثائر الأحمر ، على أحمد باكثير ، ص ١١٠ ــ ١١١ .

يقول الكاتب في حوار دار بين عبدان وجعفر الكرماني حول موضوع الزواج حينما تقدم عبدان لخطبة " **شهر** " أخت الكرماني :

فقال له الرجل : " ما يضمن لي ألا يبدو لك يوماً فتقاضيني بما في يدك من وثيقة الزواج فيحكم لك بما تريد ؟ "

قال عبدان : " أفهذا هو الذي يمنعك من تزويجي ؟"

فقال له الرجل : " إن أردت الحق فليس هذا فحسب هو الذي يمنعني "

- لقد فهمت ما تريد ، إنك تعني فقري .
- كلا ، ما هو بذاك ولكني ظننتك حراً تنشد إصلاح أحوال الناس وتبغي سعادتهم ولا تخضع إلا لحكم العقل ، فإذا أنت كسائر الناس ترسف في أغلال العقائد الموروثة وقيودها.
- نسي عبدان عند ذاك مسألة الفتاة واستحوذ عليه حبه للجدل العلمي فقال :
- ولكن لا غنى عن بعض هذه القيود التي فرضها الدين لصلاح البشر واستقامة أمورهم .
- متى صلحت أحوال الناس بالدين ياعبدان ؟ لقد وجد الدين من قديم وما برح الفقير يموت من الجوع ، والغني يموت من البطنة ، والقوي يسطو على الضعيف ، والسلطان يجور على الرعية ، والرعية تخضع لهذا الجور.
- ولكن الدين لا يرضى بهذا.
- فأين الدين ؟ أليس في صدور حملته من العلماء ؟
- بلى .....

- فهل كانوا إلا أعواناً للظلم ، يتأولون نصوص الدين بما يرضى السلطان لكيلا ينالهم أذاه (١) .

وظل الحوار بينهم على هذه الوتيرة من الهجوم على قواعد الدين التى تحكم الناس فى علاقاتهم بعضهم البعض ، وامتد النقاش إلى الحرية الفردية – وإلى الأرض ونزع ملكيتها لتكون عامة للجميع وكذلك المال لا يأخذ منه أحد إلا قدر حاجته ، ومناقشة هذه الأمور جعلت عبدان ينظر إلى الحياة والناس بمنظور جديد ، خاصة بعد ما قام الكرمانى بزعزعة إيمانه وهدم مثله العليا ، وجعل الشك يحيط به من كل جانب خاصة فى دينه وعقيدته ، فما كان من عبدان إلا أن اقتنع تماماً بالمذهب الجديد وآمن به ، وتحققت أمنيته فى الفوز " بشهر " وبدون عقد زواج فى ظل المذهب الحر الجديد مذهب العدل الشامل ، وأصبح عبدان من دعاة المذهب وأهم رجاله .

وقد عكف الكاتب على شخصية عبدان والكرمانى ، وشهر يبرز من خلالهما كل ما نادت به الحركة الجديدة – الشيوعية – من أفكار مثل التشكك فى الدين ، والمساواة بين الرجل والمرأة ، والدعوة إلى الحرية المفرطة فى كل شئ حتى الإباحية ، وهنا تلتقي الشخصيتان الرئيسيتان فى الرواية فى التوحد فى الهدف والمقصد رغم تباعد كل منهما عن الآخر ، فحمدان يؤلب الناس ضد السلطان ويدعوهم للثورة ويجمع منهم المال اللازم لمحاربة السلطان وهدم نظام الدولة وفرض نظام المذهب الجديد ، وعبدان يلتقى معه فى ذلك ولكن بوجه آخر ، وجه الفقيه النير الذى يدعو الناس إلى الخير والنفع الكبير ، حتى أصبح له مؤلفات منشورة بين الناس يقرأها العامة والفقراء فيعجبون بها وتستهويهم الحياة الجديدة والأفكار الجديدة وقد سار الكاتب بالشخصيتين فى هذا الاتجاه حتى

---

(١) الثائر الأحمر – على أحمد باكثير ، ص ١١٨ – ١١٩ .

تحققت أمانيهما ، وأصبح لهما دولة يطبقون فيها مذهبهما ، ولكن ما أراد الكاتب أن يبثه من ثنايا حمدان وعبدان ، هو أن كل من يخالف الفطرة السليمة ويخالف العادات والتقاليد الموروثة ، ويخالف الدين والعقيدة لا يمكن أن تستقيم معه النفس الإنسانية ولا أن تستقيم فى ظله الحياة الصحيحة بين الناس .

وحرص الكاتب على إيراد كل هذه القضايا وطرحها من خلال هاتين الشخصيتين جعل من هذه النماذج مرآة عاكسة لأفكاره وثقافته ، بحيث يشعرنا أحياناً بقيود فرضها على أشخاصه وأنماط حددها لا تخرج منها – فمثلاً عبدان ظل على مذهبه لم يفكر فى العودة إلى حقيقته الأخلاقية رغم انهيار دولته وانهيار مذهبه ، ورغم فقدانه كل شئ بخلاف حمدان الذى أعلن فشل هذا المذهب ، وأعلن توبته وخضوعه للسلطان فى النهاية وساعد الناس فى الخروج من حدود دولته ، والعودة إلى ديارهم ، ثم العودة إلى دينهم الصحيح .

ولم يترك الكاتب المجال أمام بقية الأشخاص ، فقد تحدث عنهم معلناً أنهم قد انقسموا فريقين ، فريق أعلن توبته منهم عالية وابنتها مهجورة وزوجها ، ومنهم من أصر على البقاء فى ظل هذا النظام رغم اندحاره وتقلصه مثل راجية وفاختة وغيرهم ، وهذه نهاية توافق الكاتب وتوافق أفكاره وثقافته الدينية ، حيث الانتصار دائماً للقيم والأخلاق .

ومن الشخصيات الأخرى المساعدة ، والتى تمثل الثبات دائماً على مبدأ واحد وعلى عقيدة ثابتة شخصية " أبى البقاء البغدادي " رجل الدين الذى وقف فى وجه السلطان مطالباً بحقوق الفقراء والمظلومين ، وكان يمثل فى الرواية الوجه الحقيقى للدين الإسلامى ، فى تصديه لحركة القرامطة ودحضه لآرائهم وأفكارهم الشاذة ، وتحمله فى ذلك

الكثير من الشدائد ، فقد اعتقله السلطان لكثرة هجومه عليه بسبب حقوق الفقراء ، ولم يثنه ذلك عن موقفه ، ومجيء الكاتب بمثل هذه الشخصية وفى مثل هذه الظروف يؤكد على أن هدفه ليس فضح هذه الأفكار فقط ، وإنما هدفه هو ضرورة أن يكون رجل الدين الذى يمتلك هذه المواصفات من الشجاعة والثقافة الدينية والفكرية ، والصلابة فى تحمل الشدائد أن يكون له دوره فى توجيه الحياة بشكل عام ، وأن يستمر على جهاده لا يتسرب إليه اليأس ، وقد وفق الكاتب كثيراً فى عرض قضايا المسلمين ومناقشتها من منظور الدين الإسلامى ، وقد وفق أيضاً فى مقابلة أفكار القرامطة بأفكار الدين متمثلة فى شخصية **" أبى البقاء "** فقد تحدث عن الفقر ومعالجته فى الإسلام ، وعن الملكية وحدودها فى ظل حكم الله [1] وغير ذلك من الأمور التى تهم طوائف كثيرة من المسلمين وتحتاج إلى من يفتيهم فيها وينير لهم الطريق .

وتختلف شخصية أبى البقاء فى هذه الرواية عن غيرها من الشخصيات الدينية الأخرى ، وتتجلى مظاهر الاختلاف عنده فى أنه يفتى الناس ويسعى لتطبيق فتواه ويجتهد فى رفع الظلم ، ولا يخشى السلطان ولا غيره من الأغنياء وأصحاب الأموال ، وقد عقد الكاتب مناظرة بين الشريعة الإسلامية متمثلة فى أبى البقاء وبين من اعتنقوا مذهب العدل الشامل تجلت فيها رحمة الشريعة بالفقراء والبائسين ، ومن ذلك يقول الكاتب موضحاً دور أبى البقاء ودفاعه عن دين الله :

- أخبرنى أصلحك الله عن العامل الذى يستغنى عنه صاحبه فلا يجد له عملاً عند غيره ماذا يصنع؟
- يكون له حق الفقير أو المسكين حتى يجد عملاً يحسنه .

---

(١) أنظر الحوار الذى دار بين أبى البقاء وثلاثة ممن كانوا يريدون اعتناق مذهب القرامطة ، تحدث فيه الشيخ عن حكم الإسلام فى حق العامل والأجير وتنظيم حياة الناس . من ص ٢٢١ إلى ص ٢٥٦

- والذى لا يحسن شيئاً من العمل ؟
- على الدولة أن تتيح له من يعلمه صناعة أو حرفة تنفعه وتنفع من حوله ، وأن تعيره الأدوات اللازمة لحرفته حتى يستغنى عنها ، فيردها أو يؤدى ثمنها .
- أفى دين الله كل هذا يا أبا البقاء ؟
- نعم وزيادة .
- ما الزيادة ؟
- التراحم والتواد ، وألا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن .
- هذا والله القول الحق . والله لأبلغنه لأمثالى من العمال البائسين فأنقذهم من وساوس القرامطة .
- افعل ولك ثواب الله على كل رجل تهديه .
- لكن ماذا أقول لهم إن استنجزوا هذا الوعد ؟
- قل لهم إن فرج الله قريب ، فإن أبوا إلا الجدل فقل لهم لم لا يستنجزون القرامطة وعدهم؟ (١) .

ولم يقف دور هذه الشخصية الدينية عند حد التوضيح والتفسير لأحكام الله بل تعداه إلى التفكير فى مخرج من هذه الفتنة والحفاظ على دين الله وشريعته ، وكان أن أشار على الخليفة " **المعتضد** " بإنشاء ديوان الزكاة وديوان الفضول ، وديوان الفقراء

(١) الثائر الأحمر - على احمد باكثير ، ص ٢٣٨ .

والمساكين ، وديوان الفلاحين ، وديوان الصناعة والعمل ، ومن حسن اجتهاده أن وضع لكل ديوان كتاباً يسترشد به القائمون عليه (١) .

وإذا كانت شخصية حمدان تمثل الثورة على رأس المال والأغنياء ، وشخصية عبدان تمثل العبث واللهو بأحكام الدين وتعاليمه ، والثورة على نظام الدولة وإقامة نظام جديد مكانه ، فإن الشخصية الدينية المتمثلة فى أبى البقاء البغدادى تمثل الثورة على الأوضاع المتردية ، وتمثل المحافظة على الدين وطهارته ، وتحتل مكانة ناصعة بين شخصيات الرواية ، لما قدمته من أفكار ومعالجات لأمور ، اختلط معظمها على الناس وتمثل الاجتهاد الدينى والفكرى المستمد من القرآن والسنة ، وقد وفق على أحمد باكثير فى تقديم هذه الشخصية ووضعها فى مكانها المناسب بين بقية الشخوص وبين أحداث الرواية.

ويلاحظ أن الكاتب اعتمد فى تناوله هذه الشخصية على المناقشة الصحيحة والهادفة لكثير من القضايا التى تشغل المجتمع الإسلامى فى كل زمان ومكان ، واعتمد فى دحضه أفكار القرامطة -الشيوعية - على توضيح قضايا الدين وتوضيح مفهوم العقيدة ومفهوم العمل فى الإسلام .

كذلك لجأ الكاتب إلى ميزة فنية أخرى هى الاعتماد على الرمز فى دلالة الأسماء فعبدان تعنى العبودية فى معناها العام ، وفى أحداث الرواية تعنى عبوديته للمال ولشهواته وأغراضه الدنيوية وتعنى بقاءه وتمسكه بطموحاته المنحرفة وعبثيته بدستور السماء ، كذلك دلالة الرمزية فى حمدان تعنى الحمد المطلق ، وقد ظلت هذه الدلالة ملازمة

---

(١) السابق ، ص ٢٣٩ .

للشخصية فى أكثر الأحيان ، وانتهت الشخصية بعودتها إلى صوابها بعد كفرها وإلحادها إلى هذه الصفة مرة أخرى .

كذلك شخصية رجل الدين المتمثلة فى أبى البقاء البغدادى ، لها من الدلالات الكثير والكثير ، حيث الخلود والبقاء والاستمرارية ليس للشخصية فحسب بل يمتد هذا المعنى إلى شريعة الله ودينه ، وإلى الأفكار والأطروحات المستنيرة التى عمد الكاتب إلى طرحها فى هذه الشخصية .

ومن الشخصيات الأخرى الموجودة فى الرواية ، شخصية عالية وراجية أختا حمدان وتمثل **الأولى** الصبر والمعاناة والرضا والعلو رغم ما تعرضت له من نكبات فى سيرة الرواية ، وتمثل **الثانية** الفساد والانحطاط الأخلاقى والثبات على ذلك .

٣- أبرز شخصيات رواية (سيرة شجاع) :

يقدم على أحمد باكثير فى روايته سيرة شجاع ، عدة شخصيات مختلفة ومتناقضة من حيث الشكل والموضوع ، فهناك الشخصية التى فقدت الانتماء الوطنى واهتمت بأمورها الشخصية حتى انجرفت فى تيار الخيانة ، وهناك الشخصية التى تمثل الانتماء الحقيقى فى أجمل صوره وتهتم بقضايا الأمة وتساعد كثيراً فى النهوض والارتقاء الوطنى، مهما كلفها من مشاق وتضحيات، وهناك الشخصية الخائنة، والشخصية الإصلاحية التى تستمد إصلاحها وحبها لوطنها من وازع دينى مسيطر عليها .

وقضية الانتماء من القضايا التى يهتم بها على أحمد باكثير ، ويحاول طرحها من جوانب مختلفة ، كلما سنحت الفرصة، وهو انتماء تسيطر عليه النزعة الدينية الخالصة التى تدفع صاحبها دائماً إلى الأمام ، وتجعل نصب عينيه مصالح الأمة ، متناسياً ذاته مرتبطاً بالقيم الإنسانية السامية ، وأهم ما يميز باكثير فى طرحه قضية الانتماء فى روايته

سيرة شجاع ، المباشرة فى تناوله للموضوع والربط بين القضية والواقع ، معتمداً على تراثه الدينى وثقافته الإسلامية الواسعة ، التى توظف الموروث التاريخى حسب مقتضيات العصر ومتطلباته ، وتضفى نوعاً من القداسة والشرعية على الأحداث خاصة إذا عرفنا أن قصته سيرة شجاع مهداه إلى أبطال ثورة ٢٣ يوليو جمال عبد الناصر ورفاقه الذين حققوا الوحدة الإقليمية والقومية العربية – يقول الكاتب فى الإهداء " إليك يا جمال ، وإلى رفاقك الأبطال ، وإلى هذا الجيل الذى شهد هذا البعث الجديد ، الذى أجراه الله على أيدكم فأيقظ مصر بعد سبات وأحياها بعد موات ، ودفع بها فى سبيل القوة والمجد ، ثم سرت روحه إلى سائر العرب فى مختلف أقطارهم ، فأهابت بهم أن حى على القوة والعظمة والمجد ، أهدى هذه القصة التى استقيت حوادثها وحقائقها من سطور تاريخنا العظيم الحافل ، واستوحيت معانيها ومغازيها من مشهود هذه الثورة العظيمة الخلاقة ، فالتقى فيها الماضى المجيد بالحاضر المجيد ، واجتمعت بطولات الأمس ، وبطولات اليوم فى صعيد وسقط ما بين ذلك من عهود الظلم والفساد والذل والاستعباد فكأنها لم تكن إلا عبرة لمن اعتبر وذكرى لمن أدكر ، ولك بعد إن شاء الله الغد الأمجد يا جمال ولرفاقك الأبطال ولهذا البلد الخالد وشعبه الناهض ، وللأمة العربية جمعاء " (١).

وهذا الطرح المباشر يساعد كثيراً فى توضيح الشخصيات وفك رموزها، ومعرفة نوازعها وميولها وردها إلى حقيقتها الفنية والموضوعية ، التى تشير إلى تأصيل فكرة القومية العربية ، ويعرف الكتاب الانتماء بأنه " عملية التلاحم والتفاعل الواجبة والحتمية بين الفنان وواقعه ، أو هى العمليات التى تنتج عن ضرورة سمو الفنان إلى مستوى عصره برمته ، ولا يتم التعبير عن هذه المعاصرة بالنسبة للفنان إلا من خلال تعميق الرؤية الفنية

(١) سيرة شجاع ، ص ٥ ، على أحمد باكثير .

فى رسم شخوص العمل الفنى الروائى ، ونقل المفاهيم الحضارية المتطورة بشكل إنسانى عام ضمن قيم شاملة يرتبط العمل المنتمى بها ارتباطاً وثيقاً ، أو ينفصل عنها اللامنتمى بشكل حاد ، وهذه القيم الإنسانية هى التى تعنى حصيلة حضارية متشعبة ، وخلاصة فكرية للمبادئ الإنسانية التى تتناقلها أجيال أمة على طول حياتها " [(١)] وتزداد قضية الانتماء وضوحاً عند الكاتب لارتباطها بشكل مباشر بالوحدة العربية والقومية العربية فالانتماء عنده يعنى التلاحم الفكرى والوطنى بين الشعوب والأمم المختلفة ، ويمثل الانتماء الأخلاقى والدينى والبطولى بمفهوم واسع ومحدد المعالم شخصية " **شجاع** " بن شاور ويمثل الأب – شاور شخصية غير المنتمى ، وهما شخصيتان متناقضتان يمثل كل منهما بعداً فكرياً متبايناً ، رغم التقارب فى النسب .

أ) الشخصية المنتمية (شجاع بن شاور) :

ويمثلها بطل الرواية ، شجاع بن شاور ، وقد حملها الكاتب أفكاراً مثالية وأخلاقية جعلتها تعيش معاناة نفسية مضطربة ، إلا أنها تمثل ضمير الكاتب وهدفه من الرواية وبالنظر فى المسمى ذاته والذى يمثل المدخل لعالم هذه الشخصية ، نجد أن الشجاعة تعنى شدة القلب عند البأس ، والصبر عند الشدائد ، وتنطبق هذه الصفة على ما قامت به الشخصية من بطولات ومواقف شجاعة ، وتأتى أيضاً أهميتها فى أنها الشخصية – أو التسمية التى جعلها الكاتب عنواناً لروايته ، وقد عمد الكاتب إلى تتبع هذه الشخصية ورسم سيرتها فى ظل أبن " **شاور** " منغمس فى أوحال الرذيلة فاقد للانتماء مما ساعد فى إظهار التناقض الكبير بين الشخصيتين ومواقفهما تجاه الوطن والدين والأخلاق .

---

(١) الشخصية وأثرها فى البناء الفنى لروايات نجيب محفوظ ، د/ نصر محمد إبراهيم عباس ، ص ٣٠ ، السعودية – الطبعة الأولى ، سنة ١٩٨٤ .

ورغم أن " **شجاع** " ليس محركاً لكل أحداث الرواية وتقلباتها ، إلا أن الكاتب نجح فى أن يلفت نظر القارئ إلى تصرفاته ، التى تعبر دائماً عن الضمير العام ، والأمل المنشود فى ظل الواقع المتردى بسبب فقد الانتماء الوطنى والقومى والمتمثل فى تصرفات أبيه " **شاور** " وشجاع كما هو واضح فى الرواية رقيق المشاعر ، قوى العزيمة ، لا يرضى بالهوان والانكسار محب لدينه وبلده ، ينكر على أبيه أفعاله مع حرصه على طاعته لا يطمع فى جاه أو منصب بقدر ما يطمع فى حرية بلده وتأصيل عروبته ، حاول مراراً أن يثنى أباه عن الأفعال الخائنة وكان ينجح أحياناً ويخفق أحياناً أخرى ، إذ كان يتلمس النصر والخير والنجاة دائماً فى أحاديث أبيه ، وشجاع شخصية تحمل أفكاراً نبيلة ونفساً أبية ، تبدو عليها كل ملامح البطولة والرجولة ، لكن أفكارها وشجاعتها دائماً تحتاج إلى من يضفى عليها صفة الشرعية ، فهو بجانب جهاده لانحرافات أبيه ومخازيه لا يتورع عن التطوع للقتال فى صفوف المسلمين ، وإن كان ذلك دائماً يتعارض مع أهداف أبيه ، ويوقعه فى معاناة نفسية وصراعات داخلية فلمن يكون الانتماء؟ للوطن والدين أم للطاعة الأبوية بغية إصلاحه وتقديمه ، وهذه الحيرة النفسية لم يوفق الكاتب كثيراً فى حسمها بل جعلها تتأرجح ، فتارة يكون الانتماء للوطن والدين والأخلاق ، وتارة يكون الانتماء للأب الفاسد ، خاصة حينما ينجح فى خداع ابنه ، وتارة يلجأ المنتمى إلى البعد والهرب عن دائرة الصراع معلناً عدم قدرته على توجيه الأحداث ، وهذا كله جعله يبدو أحياناً أقل مما حمله الكاتب من مواهب وصفات ، وجعله يبدو ضعيفاً كسيراً لا يقدر على شئ .

ومن خلال مشوار البطل نلاحظ أن الكاتب قد وفق فى سبر أغوار هذه الشخصية ومع تحديده للمعاناة الأخلاقية والبطولية وحصرها فى الصراع بين الأب والابن ، لم يقحم

نفسه فى تحديد مسارها، بل جعلها تتحدد من خلال العلاقات المتشابكة بين الشخصيات الأخرى ، ومن خلال الأحداث . ويتفق هذا التوجه مع مذهب الكاتب فى رسم شخوصه ورسم المسار الروائى لهم ، فلقد اعتمد باكثير فى ذلك وركز جل اهتمامه فى " **سيرة شجاع** " على الفكرة المتصارعة – التى يصدو إليها شجاع ويتمنى تحقيقها ، والمتمثلة فى كشف سوءات الشخصيات الأخرى مثل شاور والعاضد وابن الخياط ، وغيرهم من الشخصيات التى لا تحفل إلا بما سيتحقق لها ، والتى ساعدت إلى حد كبير فى جلاء ٥ واقف شجاع فى ظل هذا العالم المليء بالانكسارات والهزائم الحسية والمعنوية .

ومن هذا المنطلق فالكاتب تبنى الفكرة وحدد لها الشخصية القياسية ، وترك لها المجال وهو الصراع الدؤوب نحو الفضيلة ، وقد بدأت هذه السيرة بسعى شجاع للصلح بين أبيه وخصمه "**ضرغام**" خشية إراقة دماء المسلمين ، ثم فشل مسعاه وانضمامه إلى فريق أبيه ، وحزنه الشديد على ذلك ، ثم موقفه يوم حصار بلبيس من قبل الفرنجة ، إذ ترأس فرقة تسمى فرقة الموت ، كانت تنقض ليلاً على جنود الأعداء فتذبحهم ، وظل كذلك إلى أن وقع فى الأسر ، ثم محاولاته المستمرة فى الإصلاح بين أبيه وبين أسد الدين بهدف جمع كلمة المسلمين ، ووقوفه بجانب أسد الدين حين تأكد له بطلان موقف أبيه ويأسه من إصلاحه ، وموقفه من أبى الفضل صهره حينما عادى أباه ، وأخيراً مواقفه الوطنية حينما زالت دولة أبيه،وتمسكه بضرورة الانضمام للجيش والعمل بتدريب المقاتلين تطوعاً لخدمة بلاده

ويستمر الصراع بين الأب غير المنتمى والابن الذى يمثل الانتماء بكل معانيه المطلقة ، وكأنه حرب بين الخير والشر بين الصلاح والفساد ، هذا الصراع الذى جسمه

الكاتب لمصلحة الابن وإن لقى جزاء انتمائه القتل على يد أبيه ، حينما حاول الابن أن ينهى أبيه عن اغتيال أسد الدين ورجال العهد الجديد على مائدة الطعام .

وكأن الكاتب يقول لرجال الثورة ورجال الإصلاح ، انتبهوا أيها الأبطال فإن العهد القديم له زبانيته ، وله أنصاره الذين فقدوا بمجيئكم إمتيازات كثيرة ، فانتبهوا حتى تجنوا ثمار غرسكم ، وإلا ستكون النهاية شبيهة بنهاية أبطال هذه القصة .

ب) الشخصية غير المنتمية (شاور) :

إذا كان الانتماء يقصد به " التلاحم والتفاعل " بين الفنان وواقعه وبين الشخص وقضايا أمته ، فإن عدم الانتماء يعنى فقدان الشخصية للمقومات الوطنية والدينية والأخلاقية ويعنى فى كثير من الأحيان سلبية الشخصية واغترابها عن واقعها ، واهتمامها بفرديتها وذاتيتها – وباكثير يقدم فى هذه الرواية نموذجاً للشخصية الساقطة فى براثن الغدر والخيانة – وفى طرحه لهذا النموذج ، يؤكد على الرفض المباشر للواقع بكل عناصره التى ساعدت فى إفراز ذلك النموذج ، وينظر إلى واقعه ، وكأنه يضع الضوابط اللازمة للشخصية الوطنية التى تعيش ولاهم لها إلا تحقيق أهداف ومقاصد نبيلة .

ويمثل هذا النوع فى رواية – سيرة شجاع – شاور بن مجير السعدى ، وتعد من الشخصيات الرئيسية فى الرواية ، قدمها الكاتب مجردة تقف فى وجه الأحداث غير مبالية بالعواقب وكأنها رمز حقيقى على فساد الواقع وتمزقه فى تلك الفترة ، وقد نجح الكاتب فى كشف الصراع الداخلى والنفسى الذى تعانيه هذه الشخصية ، والتى كانت صورة لصراع الواقع ، الذى ينئ من التأرجح بين الفساد والتخلف والانشقاق ، ويعانى من طمع الأعداء فى نهب خيراته وهى شخصية تجمع بين الفصاحة والبلاغة ، والمكر

والدهاء وتلوين الأمور، لديه المقدرة الفائقة على الإقناع بالممكن وغير الممكن ، والخيانة أمر يسير عنده .

وحينما نتتبع سيرته نجد أنه اعتلى الوزارة ، أثر حرب بينه وبين خصمه ضرغام لقى فيها هزيمة نكراء ، واستطاع بحيلته أن يلجأ إلى ملك الشام " **نور الدين** " بإيعاز من زعيم جماعة المصلحين فى مصر " أبو الفضل الحريرى " طالباً النجدة والرعاية ، فتأتى معه حملة كبيرة تمكنه من الجلوس على كرسى الوزارة ، وبعد ذلك يتنصل من كل وعوده الإصلاحية ، وقد عرض الكاتب على ربط هذه الشخصية بالواقع ، محللا دوافعها وأهدافها ونوازعها الشخصية والإنسانية ، وما تنطوى عليه من شرور وأحقاد ، وانفصالها عن مصلحة المجتمع ، وعلى الرغم من رمزية هذه الشخصية مكاناً وزماناً ، نراها تدور فى عالم نفسى قلق ومضطرب تغلفه الحيرة والخوف المستمر من الخصوم والخليفة وغضب الشعب وقد لجأ الكاتب فى تحديد الملامح الوصفية الروائية إلى السلوك العام ، والأحاديث والحوارات الداخلية والخارجية ، مستعيناً بأحاديث الشخصيات الأخرى المتصارعة معها كذلك لجأ الكاتب فى تحديد الأبعاد الأخلاقية فى هذه الشخصية ، إلى توضيح العلاقة بينها وبين غيرها من الشخصيات الأخرى المناهضة لها والمؤيدة أيضاً .

ولم يعتمد الكاتب فى تقديم هذه الشخصية على الوصف الخارجى لها ، بل ركز على البعد النفسى والصراع الشديد بين الواقع غير الممهد دائماً وبين الطموحات الشخصية وأومأ الكاتب إلى لحظات الارتياح القليلة فى بعض الأحيان ، عندما تهدأ الأوضاع أو تكون فى جانب هذه الشخصية ، لكنها لحظات قليلة لا تدوم طويلاً ، كذلك نزع الكاتب إلى الوصف الاجتماعى ، الذى يتعلق بالطبقة التى تنتمى إليها الشخصية ، فصور مظاهر الترف ، والعمل وهو المنافسة على وزارة البلاد وأشار إلى الفصاحة فى القول ، والقدرة

الفائقة على قلب الأمور وتلوينها بطريق اللحن فى القول ، كما جنح الكاتب إلى ذكر بعض صفات الشخصية تصريحاً كما فى قوله "وكان شاور خليقاً أن ينجح فى سياسته هذه ، فقد كان شجاعاً مقداماً وكان ذكياً داهية ، وكان قوى العارضة فصيح القول ، ناصع الحجة ، يستطيع أن يقنع من يشاء بما يشاء فى كلمات قليلة معدودة يرسلها فتجرى أحياناً مجرى الأمثال تؤثر عنه وتحفظ " (١) .

ويؤكد ذلك أن هذه الشخصية من الطراز العنيد ، الذى يطمح دائماً إلى القمة ولا يقنع بأنصاف الحلول ، فأما أن تبلغ كل ما تريد أو تنتهى ، يدل على ذلك أن الأمور حينما باتت فى يد أسد الدين – قائد حملة نور الدين ملك الشام – وأصبح صاحب الأمر والنهى فى البلاد ، وصلحت أمور الناس ، وأخذ الأمن والرخاء ينتشران ، وحظى أسد الدين بحب الناس وتقديرهم ، فلم يهدأ بال شاور ، وظل يكيد ويدبر كيف يتخلص من أسد الدين ، وكيف يعود له الأمر مرة أخرى ، ولم يتورع فى سبيل ذلك عن الاستعانة بالفرنج أعداء الأمة ، ولكن خطته لم تنجح بسبب شجاعة ابنه وبسالته وتصديه لأطماع أبيه ويمكن القول أن تطور هذه الشخصية مرتبط إلى حد كبير بتطور الأحداث ونموها ، لكنها مكشوفة ومعلومة للجميع ، لا يتوقع منها فعل شئ مغاير لسياستها وأهدافها .

وبالنظر لبقية أشخاص الرواية وعلاقاتها بشخصية شاور ، فقد تحددت هذه العلاقة وارتبطت بالمنفعة خاصة من قبل شاور، فعلاقته بالخليفة تهبط وتعلو متأثرة بحجم المنفعة المتبادلة ، كلاهما يبحث عن هدفه فى توطيد سلطانه وفرض سيطرته وبقائه لمدة أطول ، كذلك علاقة شاور بأبى الفضل الذى يمثل الشخصية الإصلاحية الإيمانية لم تبعد كثيراً عن المصلحة الفردية ، التى استطاع شاور أن يستفيد منها كثيراً

---

(١) رواية " سيرة شجاع " – على أحمد باكثير ، ص ٢٤ .

أيضاً علاقة شاور بأسد الدين قائد حملة نور الدين ، علاقة الاستفادة من قوته العسكرية والتحايل على الأمور مراراً لكسبه فى صفة والاستعانة به ، ثم التخلص منه إذا ما لزم الأمر واستتب الأمن ورجعت الأمور فى يده .

وإذا كان شجاع يمثل عنصر الوطنية والتضحية ، ويمثل حقيقة ثابتة هى الحب والانتماء اللامحدود ، ويمثل أيضاً الفكرة العامة والرئيسية للكاتب فى روايته سيرة شجاع فإن أباه يمثل الاتجاه المعاكس والمناقض له ، وهاتان الشخصيتان المتناقضتان فكراً وخلقاً وتطوراً ، ترمزان إلى الواقع المهترئ والممزق ، وكأن الكاتب يهتف من ورائهما بضرورة توحيد الصف ، وتوحيد القوى الداخلية، وتوحيد الأفكار والرؤى بداية بين الأب وابنه وبين الحاكم والمحكوم ، وبين جميع طوائف الأمة والمتأمل فى التناقض بين الفكرتين المتمثلتين فى أجواء كل شخصية يلاحظ أنهما انعكاس لكثير من المضامين الفكرية والدينية الواقعة آنذاك ، والتى حبست أنفاس الأمة وكبلت خطواتها التقدمية ، وباكثير يسوق هذا التناقض الكبير ، والذى زال بعد التوحد والانصهار ، ساقه ليلفت النظر إلى الفرقة الموجودة بين أبناء الشعوب العربية والإسلامية فى العصر الحديث ، وينبه إلى أنه لا سبيل إلى الخروج من هذه الدائرة إلا إذا عمت الوحدة ، وانتصر الحب الوطنى على ما عداه ،

ويبدو واضحاً اهتمام الكاتب بالنواحى الفنية فى رسم هاتين الشخصيتين إذ استطاع أن يعبر عن الهواجس والتفصيلات الرفيعة فى حياة شاور ، فصور مقدرته فى السيطرة على الآخرين ، وصور البعد الاجتماعى والنفسى ، ومدى ثقافته وقوة منطقه وحجته ، وعدم مقدرة الآخرين على مسايرته لغوياً ، كذلك ساعدت التفصيلات الدقيقة فى حياة شجاع ، على كشف الغطاء الأخلاقى وتعريته بالنسبة لشاور المنغمس فى أوحال الخيانة .

حـ) الشخصية الإصلاحية :

(شخصية أبى الفضل الحريري، وشخصية أسد الدين شيركوه):

وإذا كانت رؤية الكاتب قد تحددت فى أن الوحدة هى الأمل الوحيد لنجاة هذه الأمة ، وأن سبب فساد الحياة هو الصراع المتواصل على السلطة بين أبناء هذه الفترة ، فلا شك أن بقية الشخوص بواسطة مقدرة الكاتب الفنية – جعلت رؤية الكاتب الذاتية تتضح اتضاحا كبيراً ، وجعلت الأحداث تسير فى الطريق المرسوم لها ، بل إن هذه الأحداث تمخضت عن دور كبير لبعض شخوص الرواية ، فكانت محركاً للأحداث ، فمثلاً شخصية أبى الفضل الحريرى زعيم جماعة المصلحين ، تحاول مصارعة الأحداث ، وتحاول النهوض بالأمة ومعالجة مرضها العضال ، حيث تبنى فكرة الثورة منذ البداية ، وأخذ ينشر فكرته ويسعى لنجاحها مع نفر قليل من عامة الشعب ، وكلما تطورت الأحداث وتزايدت الفكرة ، تزايد أنصارها رغم كل العقبات والمخاطر التى تواجههم ، فهى شخصية مثالية ومن الناحية الفنية تعد من الشخصيات الثابتة غير المتطورة ، إذ هى ثابتة على موقف واحد منذ البداية، ورغم ذلك فقد عول عليها الكاتب كثيراً فى تأييد فكرته الروائية ، وكذلك شخصية أسد الدين شيركوه القائد الذى جاء على رأس حملة من الشام بعث بها نور الدين ، لنصرة شاور وإنقاذ مصر ، بإيعاز من أبى الفضل الحريرى وعلاقته الطيبة بنور الدين ، هذه الشخصية التى تبنت الإصلاح وبدأ معها عهد جديد ، هى مثال للشخصية العسكرية التى تؤدى دورها على أكمل وجه وكأن الكاتب من خلال التركيز على هذا النموذج العسكرى ، يقول إن الوحدة القومية والوطنية قوامها الجانب العسكرى والجانب الوطنى والجانب الدينى ، حتى تنهض الأمة وتتقدم وتواجه المخاطر المحدقة بها .

كذلك شخصية الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، الذى فقد دوره الإيجابى فى الحكم والسياسة ، وقد جاء به الكاتب مظهراً الجانب السلبى والذى أخذ يتلاشى شيئاً فشيئاً ، مع تطور الأحداث وكأنه ينبه إلى فساد ذلك النظام وعدم قدرته على توجيه الحكم والسياسة ، وقد أكد باكثير من خلال هذه الشخصية على تعميق الفكرة الرئيسية وهى الانتماء واللاانتماء ، حيث أن هذه الشخصية ظلت منذ البداية ، تدور فى فلك محدد لا تخرج عنه مهما جد من أحداث ، فكل اهتمامها منصب فى كيفية الحفاظ على إرث الأجداد وعرش الآباء ، غير عابئ بمصير البلاد ، وما يحدق بها من أخطار وعبر فكرة الانتماء وعدمه فى هذه الشخصية ، نجا أنها سارت بنجاح مرسوم إلى التلاشى والسقوط وأصبحت غير مذكورة بسبب العزلة والضعف ، وعدم المقدرة على المواجهة الصريحة .

كذلك هناك من الشخصيات النسائية المساعدة ، التى ساهمت فى تطور الشخصية الرئيسية وكشف كثير من الأحداث ، ودفعها إلى الأمام ، سواء كان ذلك بالسلب أو الإيجاب ، من هذه الشخصيات ، شخصية " **سمية** " بنت أبى الفضل وزوجة شجاع بن شاور ، ومن خلال تتبع مسيرتها الروائية يلاحظ أنها شخصية مدفوعة بذاتها إلى الأصالة والتمسك بالقيم والمبادئ الإسلامية ، ورغم أنها تحيا فى بيت شاور ، إلا أنها كانت سبباً مباشراً فى الحفاظ على مواقف شجاع البطولية ، ورغم أن عوامل المد والجزر التى أحاطت بها ، كانت كفيلة بإبعادها عن مجرى الأحداث ، إلى أنها تمسكت بموقفها الصارم تجاه القضية الإصلاحية ، وتعتبر " سمية " امتداداً لأبى الفضل ومشواره الإصلاحى على المستوى الظاهر وتعتبر الوجه الآخر لشخصية شجاع ، خاصة حينما يندمجان ويتلاحمان حزناً أو فرحاً ، كذلك تمثل هذه الفتاة ، الزوجة المحبة المخلصة لزوجها والمناصرة له دائماً فى كل قضاياه ومواقفه ، كما توضح " **سمية** " الجانب الإيجابى

الصريح ، إذا قورنت بشخصية " **زبيدة أم شجاع** " التى تعلم دائماً حقيقة زوجها شاور لكنها لم تنهه أبداً أو تلمح له ، بل عكفت على إيثار الإخلاص والمحبة والمودة له دائماً ، مما جعلها تبدو فى أكثر من موضع على جانب كبير من السلبية، خاصة حينما كانت تتعدى إلى أكثر من ذلك وتقوم بزجر ابنها شجاع إذا حاول أن يثنى أباه عن أمر من الأمور غير الأخلاقية .

ولكن هل نجح الكاتب فى التوفيق بين الفكرة والشخصية ؟

إذا كانت الفكرة هى الجهاد ومقاومة الفساد وضرورة الإصلاح حتى يتحقق الأمن والرخاء ويصبح الانتماء الوطنى والأخلاقى هو شعار الأمة . فإن الكاتب استطاع أن يجلب لأفكاره الأشخاص الذين يقومون بالأحداث العظيمة والجليلة ، وبما أن الكاتب من أنصار الفكرة ، أو ممن يقدمون الأفكار التنويرية الإصلاحية على ما عداها ، فيمكن القول بأنه نجح إلى حد بعيد فى توظيف الشخصية النامية وجعلها محور الحدث ، وبث ما يتناسب مع إمكاناتها من مضامين فكرية وإصلاحية ، وإن كانت فى بعض الأحيان تقف عاجزة وغير قادرة على تبوء المكانة اللازمة .

وقد بالغ الكاتب فى طرح قضية الجهاد ، حيث جعله ضرورة يجب أن تقوم به النساء وذلك حينما جعل " **سمية** " زوجة شجاع تقوم بأعمال التدريب على القتال والمبارزة والدفاع عن النفس وركوب الخيل،وأسند لها دوراً يتعدى إمكاناتها فهى نشأت فى بيت أبى الفضل حيث النعمةوالترف ثم انتقلت إلى دار الوزارة بعد زواجها من شجاع بن شاور ، حيث المزيد من رغد العيش ، بالإضافة إلى صفاتها الشخصية مثل الرقة والنعومة والحساسية وما تتمتع به من جمال وعذوبة ، ولم يترك الكاتب هذه القضية دون أن يثبت شرعيتها ، وذلك فى حوار دار بين شجاع وأبى الفضل انتهى إلى أن المرأة تقاتل عند

الضرورة ، مستشهداً بما فعلته النساء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعهد عمر بن الخطاب ، وقد ترك أبو الفضل الحرية فى ذلك لشجاع زوجها ، مع إعلان عدم رغبته فى قتال المرأة ، وتأتى المبالغة فى ذلك من أن هذه الأعمال لا تناسب شخصية مثل "سمية"(١) .

قضية أخرى أثارها الكاتب وهى قضية الشخصية المرفوضة ، حيث جعل الكاتب أشخاص الرواية جميعهم يعارضون سياسة شاور ويتهمونه بالخيانة والغدر والأنانية وحب الذات على حب الوطن والدين ، وفى كل موقف يبث رأيه بصراحة فى هذه الشخصية ، وهو ما يؤكد اهتمام الكاتب بالفكرة (٢) ، وفى المقابل نجد الشخصية المفضلة تحظى بإعجاب الجميع حتى الأعداء ، وقد جاء على لسان أسد الدين شيركوه ما يلخص مواصفات هذه الشخصية – التى يمثلها شجاع بن شاور – يقول الكاتب على لسان أسد الدين :

" وطفق أسد الدين يستعرض فى ذهنه سيرة شجاع منذ عرفه أول مرة فى بلبيس إذ جاء رسولاً من ضرغام إليه وإلى شاور ، وكيف قاد فرقة الموت فيها بعد ذلك ، ثم حاول الإصلاح بينه وبين أبيه ، وفى أطفيح إذ قدم إليه محاولاً جمع كلمته وكلمة شاور على الفرنج ، وفى الصعيد كيف بعث إليه ينذره بعزم أبيه وحلفائه على محاصرة الإسكندرية وكيف كان الساعى بعد ذلك لعقد اتفاق الإسكندرية ، وكيف زالت دولة أبيه فما أثناء ذلك عن التطوع فى تدريب حى العسكر حتى اليوم ، فما وسع أسد الدين إلا أن يستصوب رأى ابن أخيه " (٣) .

---

(١) سيرة شجاع – على أحمد باكثير ، ص ٢٤١

(٢) السابق ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٣) سيرة شجاع ، ص ٢٨٣ .

وبعد كل ذلك تتضح فكرة الانتماء فى هذه الشخصية حيث جعلها الكاتب تقوم بأدوار بطولية ومثالية ، تحقق الأمان والرخاء ، إذا توافرت فى كثير من الآخرين .

٤- أبرز شخصيات رواية (وا إسلاماه):

أ) الشخصية المجاهدة (شخصية قطز) :

يحاول الكاتب فى معظم رواياته التأكيد على ضرورة الجهاد ، وقد حاول تقديم الشخصية المجاهدة فى روايته وا إسلاماه معتمداً على شخصية تاريخية تراثية ، كان لها الأثر العميق فى نفوس المسلمين على مر الزمان ، وتبدو فكرة الجهاد هى الفكرة المسيطرة على جل أحداث الرواية ، فمنذ الوهلة الأولى نجد الكاتب ، قد صدر روايته بآية قرآنية تدعو إلى الجهاد وترك الدنيا وزخرفها .

" قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ "(١) .

والروائى بذلك يريد أن ندخل عالمه الروائى ، ونصب أعيننا إيمان كامل بأن الصلاح والتغيير دائماً وأبداً لا يتحقق إلا عن طريق الجهاد وترك المتاع الدنيوى الزائل وقد اختار باكثير لفكرته أحداثاً ، تضج بالحركة والاضطراب ، وأكد على ذلك عندما افتتح روايته بهذه المقدمة ، التى أشار فيها إلا أهمية الأحداث ، وأهمية الشخصية النموذجية التى يريد أن يطرحها فقال :

---

(١) الآية (٢٤) سورة التوبة .

هذه قصة تجلو صفحة رائعة من صفحات التاريخ المصرى فى عهد من أخصب عهوده وأحفلها بالحوادث الكبرى ، والعبر الجلى ، يطل منها القارئ ، على المجتمع الإسلامى فى أهم بلاده من نهر السند إلى نهر النيل ، وهو يستيقظ من سباته الطويل على صليل سيوف المغيرين عليه من تتار الشرق وصليبى الغرب ، فيهب للكفاح والدفاع عن انفس ما عنده من تراث الدين والدينا ، ويشاء الله أن تحمل مصر لواء الزعامة فى هذا الجهاد الكبير ، فتحمى تراث الإسلام المجيد بيومين من أيامها عظيمين كلاهما له ما بعده : يوم العين جالوت .

ويطلها الملك المظفر قطز :

يضرب بنزاهته وعدله ، وشجاعته وحزمه ، وصبره وعزمه ، ووفائه وتضحيته وحنكته السياسية وكفايته الإدارية ، وإخلاصه فى خدمة الدين والوطن مثلاً عالياً للحاكم المصلح ، والرجل الكامل ، وهى بعد شهادة ناطقة بأن فى هذا الشعب الوديع الذى يسكن على ضفاف النيل قوة كامنة ، إذا وجدت من يحسن استثارتها والانتفاع بها أتت بالعجائب وقامت بالمعجزات" (١) .

وبجانب فكرة الجهاد التى تسيطر على جو النص الروائى ، يهدف الكاتب فى – وا إسلاماه –، إلى أمرين آخرين : الأول كشف النقاب عن مرحلة هامة فى حياة الأمة الإسلامية ، حينما كانت تواجه غارات التتار ، وحينما كانت تدافع ضد الغزو الصليبى ومحاولات الطمس المستمرة للمعالم والكنوز الإسلامية ، وعلة الكاتب فى ذلك هو استخلاص المثل الحقيقى والقدوة الصالحة لأبناء هذا الجيل ، وبث روح الجهاد والنضال فى نفوس المسلمين .

---

(١) الرواية – وا إسلاماه – ص ٣ .

الأمر الثاني : تقديم الشخصية البطولية الإيمانية النموذج ، والمتمثلة فى شخصية قطز ، الذى ملك مصر وهو مملوك ، وانتصر على التتار بحسن الإدارة والقيادة والمثابرة ومن خلال عرض الكاتب لحياة الملك المظفر قطز ، وما تعرضت له من تقلبات وانكسارات يؤمن بحقيقة هامة وهى أن التفوق العسكرى والسياسى ، أمر يسهل تحقيقه إذا صلح الفكر وتوحد الصف ، وبات الهم الأكبر هو الجهاد .

وإذا كانت الفكرة الأساسية فى - وا إسلاماه - هى تقديم شخصية الرجل الكامل ، فى إطار الجهاد كما صرح الكاتب بذلك فى المقدمة ، فيمكن الجزم بأنه نجح إلى حد بعيد ، فى تقديم فكرته من خلال هذه الشخصية ، التى يطلق عليها من الناحية الفنية الشخصية النامية ، وقد اعتمد الكاتب فى استشراف حياة البطل ومستقبله على وسيلة غنية بارعة وهى الرؤيا ، التى تطورت مع تطور البطل والحدث ، وأخذت بعداً شرعياً وأخلاقياً عندما اقترنت برؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم ، واستلهمت أحداثا من قصة يوسف الصديق عليه السلام . كما وفق الكاتب فى جعل الشخصية تنمو فى جو من الصراع النفسى ، الذى يبحث عن الحرية والخلاص ، والصراع الدينى والإسلامى الذى يحمل هموم الأمة وتصديها لاجتياح الأعداء ، ولم تكن الشخصية فى أبسط حالاتها ببعيدة عن مواكبة الأحداث الخارجية وما يحيط بالأمة من أخطار ومؤامرات مما جعلها مهيأة نفسياً لتحمل العبء الكبير ، وتولى أمور المسلمين .

وقدم الكاتب شخصية " **قطز** "، من جميع جوانبها الداخلية والخارجية ، فقدمه طفلاً مات أباه فى معارك التتار ، وتولى رعايته " **خاله** " " **جلال الدين بن خوارزم شاه** " وكان اسمه محمود بن ممدود ، وقدمه وحيداً فريداً فى الحياة وهو لايزال فى ميعة الصبا بعد هزيمة خاله وضياع ملكه ، ليس معه من أهله وعشيرته إلا ابنة خاله " **جهاد** " والتى

تبدل اسمها هى الأخرى إلى " **جلنار**" وقدمه فى سوق النخاسة فى أيدى تجار الرقيق ، ثم مملوكاً لأحد وجهاء دمشق مع ابنة خاله ، ثم يقدمه بعد ذلك مقاتلاً وسياسياً وعسكرياً وقائداً وملكاً لمصر. وتعد شخصية " **قطز**" من الشخصيات الفنية شديدة الثراء ، والتى تقترب فى أحيان كثيرة من الشخصية المتكاملة فنياً .

ومن المشاهد التى اهتم فيها الكاتب بإظهار شخصية قطز كقائد عسكرى قوى العزيمة ، يبث فى قومه روح الجهاد ، ويحثهم على قتال الأعداء ، ومثابرته على ذلك . يقول مصوراً بعض مفردات شخصيته الإسلاميه المجاهدة :

" ولولا ما خصه الله به من قوة البنية ، ومتانة الأعصاب ، ومضاء العزيمة وصرامة الإرادة ، وصدق الإيمان ، والعقيدة القوية ، بأن الله قد هيأه وأعده للقيام بكسر التتار وطردهم من بلاد المسلمين ، لما استطاع أن ينجز فى بضعة أشهر ما يعجز غيره عن القيام ببعضه فى بضع سنوات ، فقد خلق الجيش المصرى خلقاً جديداً ونفخ فيه روح الفداء والاستماتة فى الدفاع عن الدين والوطن ، وأفاض عليه من شجاعته وحماسته فإذا هو يتوقد حماسة للقتال ، ويحن شوقاً للجهاد فى سبيل الله ، وقد استطاع أن ينزل السكينة والطمأنينة فى قلوب سواد الناس بعد أن كانت ترجف هلعاً من ذكر التتار ، وأن يبذر فيها الثقة واليقين بأن مصر ستفلح فى رد غارات التتار عنها ، بل طردهم من بلاد الشام ، كما أفلحت من قبل فى رد الصليبيين على أعقابهم " (١) .

ومن ملامح محافظة الكاتب على صفات الشخصية المجاهدة ، تلك الحقيقة الهامة التى استمدها من رؤيا البطل قطز للرسول صلى الله عليه وسلم ، وهى أن قطز لم يسع إلى امتلاك مصر وحكمها بدافع شخصى أو حباً فى العرش والسلطة ، وأكد الكاتب

---

(١) رواية وا إسلاماه ، ص ١٨٣ ، على أحمد باكثير .

على أن ذلك كان تكليفاً شعر به البطل ، وحاول أن يحقق من خلاله رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يجمع بين أمرين تعمقا فى ذاته وداخله منذ صغره .

الأول : هو الانتقام من التتار الذين بددوا ملك أسلافه ، وقتلوا أباه ، وسبوا أمه وعشيرته جميعاً **الأمر الثانى** : وهو الذى حاول الكاتب التأكيد عليه طوال مسيرته فى الرواية، وهى غريزة الجهاد المتأصلة فى نفس البطل ، كذلك تجلى هذا الدفاع المستمر عن البطل من قبل الكاتب حينما سقطت الحبيبة شهيدة فى أرض المعركة ، وكتمان البطل لهمومه وأحزانه الداخلية بعد سماعه الكلمات الأخيرة من حبيبته وزوجته وابنة خاله **" لا تقل واحبيبتاه .. قل وا إسلاماه "** (١) ، وقد صور الكاتب هذا المشهد ، معبراً عن صلابة الشخصية وقوتها عند أشد الأزمات وأخطرها فى قوله :

وأضجعها السلطان على فراشه وجعل يقبل جبينها والدموع تنهمر من عينيه وهو يقول لها :

" وا زوجاه ! وا حبيبتاه ! " فأحست به ورفعت طرفها إليه وقالت له بصوت ضعيف متقطع وهى تجود بروحها فى السياق : لا تقل وا حبيبتاه .. قل وا إسلاماه " (٢) وكان استشهاد زوجته فى المعركة من الدوافع الكبيرة وراء تفكيره فى التخلى عن عرش مصر إلى رفيقه بيبرس ، خاصة بعد أن تحقق النصر ، وأحس بهوان الحياة .

ب) شخصية العالم المجتهد: (العز بن عبد السلام) :

من الشخصيات التى لعبت دوراً كبيراً فى توجيه الفكرة الأساسية فى الرواية شخصية العالم الإسلامى الجليل الشيخ العز بن عبد السلام، الذى يمثل الاجتهاد الدينى

---

(١) وا إسلاماه ، على أحمد باكثير ، ص ١٩٤ .
(٢) السابق ، ص ١٩٤ .

فى أكمل صوره ، وتعد هذه الشخصية من الشخصيات الثابتة ، التى استعان بها الكاتب إلى حد كبير فى رسم معالم الشخصية الرئيسية وتوضيح حدودها ، وهذا النوع الذى يبدو من أول وهلة بسيطاً غير معقد حدد النقاد وظيفته فى العمل الروائى والإطار الذى يدور فيه " إذ هى تمثل صفة أو عاطفة واحدة ، وتظل سائدة بها من مبدأ القصة حتى نهايتها ويعوزها عنصر المفاجأة إذ من السهل معرفة نواحيها إزاء الأحداث أو الشخصيات الأخرى " (١) .

وتمثل شخصية الشيخ العز شخصية العالم المجتهد الذى يقيس الأمور ، بمقياس دينى متطور بعيد عن الجمود والتقليد ، وقد وفق الكاتب فى المحافظة على نقاء هذه الشخصية المجتهدة ، وكان استدعاؤها بمقدار ، وعلى بصيرة من الكاتب بدورها وقيمتها فى ذلك الوقت العصيب ، كذلك وفق الكاتب فى رسم خط متقارب ومتوازٍ بين الاجتهاد فى هذه الشخصية الدينية وبين الجهاد فى شخصية قطز ، وكأنهما متعلقان بمصير واحد وهموم مشتركة مستمدة من روح الإسلام الغيورة .

وصور الكاتب الفضائل التى اكتسبها قطز من خلال علاقته بالشيخ " فقد نعم بخلوات جميلة معه أفاض عليه فيها من نفحاته وأسراره ، وأقبسه من أنواره ، ونفث فيه من روحه ، وأفاده من واسع علمه ما ملأه حكمة ويقيناً ، وبصيرة فى الدين ، ومعرفة بالحياة وغراماً بالجهاد فى سبيل الله " (٢) .

وكانت الرؤيا من الوسائل الفنية التى أسبغت على العلاقة بين الشيخ وقطز صدقاً فى المقصد والهدف ، وأضفت على العلاقة بينهما أبعاداً شرعية ونفسية ، فحينما قص قطز رؤياه للنبى صلى الله عليه وسلم ، على الشيخ قال له : " مازلت تفكر فى الملك

---

(١) النقد الأدبى الحديث ، د/ محمد غنيمى هلال ، ص ٥٢٩ .
(٢) وا إسلاماه ، على أحمد باكثير ، ص ١٠٨ .

وهزم التتار ياقطز حتى أتاك النبى صلى الله عليه وسلم فبشرك بهماً إنها رؤيا عظيمة كما ذكرت ، فإن تكن صدقاً فستملك مصر حقاً وتهزم التتار؟ فإن النبى صلى الله عليه وسلم يقول من رآنى فقد رآنى حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بى ، فجعل الشاب يقبل رأس الشيخ ويلثم يده ظهراً لبطن ، وهو يقول :

- بشرك الله يا سيدى .
- فقال له الشيخ مازحاً :
- ما بشارتى إذا تحققت رؤياك وصرت ملكاً على مصر ؟

فسكت قطز قليلاً وهو يبتسم ، كأنه يعد فى نفسه جواباً للشيخ ، ثم قال وقد لمعت عيناه " لو كنت يا سيدى الشيخ تحب الدنيا لسقت إليك بدر الذهب والفضة ، ولكنى سأرجع إلى رأيك فى كل شؤون ملكى ، فأقيم الشرع وأنشر العدل ، وأحيي ما أمات الناس من سنة الجهاد ، فهذه بشارتك عندى

ففرح الشيخ من حسن جوابه ، واستنار وجهه كأنه القمر ، وقال :

- " إنك لصادق القول وصالح العمل ياقطز ، وإنك لجدير بأن تكون ملك المسلمين "
- ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال :
- اللهم حقق رؤيا عبدك قطز كما حققتها من قبل لعبدك ورسولك يوسف الصديق عليه وعلى آبائه السلام .. "

ولم يكد الشيخ يؤمن على دعائه حتى رأى البكاء فى عينى قطز ، فظنه أول الأمر يبكى من الفرح ، ولكنه لم يلبث أن استخرط فى البكاء ورآه يزفر بشدة تكاد تشق صدره وتقصم أضلاعه ، فدنا الشيخ منه وسأله عما يبكيه ، فأجابه الشاب بصوت يخالطه النشيج :

- لقد علمت يا مولانا الشيخ أن الله سيستجيب دعاءك لى ، فذكرت حبيبتى جلنار ، وعز على أن لا أراها أبداً ، فوددت لو دعوت الله لى أيضاً أن ألقاها فأتزوج بها . فرق له الشيخ ، وسنحت على ثغره بسمة خفيفة ، ولم يقل شيئاً بل عاد فرفع يديه إلى السماء وقال
- اللهم إن فى صدر هذا العبد الصالح مضغة تهفو إلى إلفها فى غير معصية لك فأتمم عليه نعمتك ، واجمع شمله بأمتك التى يحبها على سنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم " .
- وما أتم الشيخ دعوته حتى جف دمع الشاب وسكن لاعج قلبه ، وطفق يتمتم :
- الحمد لله ، سألقاها .. سأتزوجها . فقال الشيخ : " **إن شاء الله** " (١) .

وهذا الحوار على طوله يكشف أصالة العلاقة وصدقها ، ويبرز حب الجهاد والاجتهاد فى الشخصيتين وكأنهما قاسم مشترك ، انطوت عليه نفس كل منهما ، وجاء دعاء الشيخ لقطز بتحقيق الرؤيا كما حققها الله ليوسف عليه السلام ، ليضفى نوعاً من المشابهة فى الفعل والحدث ، واستدعاء للأيام العصيبة التى مرت بها مصر أيام يوسف عليه السلام حتى جاء الخلاص على يديه ، بفضل إدارته وحسن تدبيره أمور البلاد ، كذلك الحال مع قطز حيث خطر التتار الذى لا يقل خطورة عن الجفاف والجدب والجوع أيام يوسف عليه السلام ، وما ينتظر قطز من دور كبير فى تحمل المسئولية فى دفع هذا الخطر.

ومن صور الاجتهاد التى تكشف عن بصيرة متقدة ، وعلم واسع ، واجتهاد موفق وشجاعة العلماء ، موقف الشيخ العز من تجهيز جيش المسلمين ، حينما عجز قطز عن جمع المال اللازم لكفاية الجيش ، وحينما تهيب العلماء الإفتاء فى جواز فرض الأموال على

---

(١) وا إسلاماه ، على أحمد باكثير ، ص ١٠٤ : ١٠٦ .

العامة لإنفاقها فى العساكر، فتهيب العلماء الإفتاء، وخافوا إن هم أفتوا بالجواز أن يغضبوا العامة عليهم، وإن أفتوا بالمنع أن يبوءوا بغضب السلطان، فظلوا يتدافعون الإفتاء، حتى صدع ابن عبد السلام بفتياه العظيمة فسكت سائر العلماء وانفض المجلس على ذلك، وكانت الفتيا صريحة فى وجوب أخذ أموال الأمراء وأملاكهم حتى يساووا العامة فى ملابسهم ونفقاتهم، فحينئذ يجوز الأخذ من أموال العامة، أما قبل ذلك فلا يجوز، فحار الملك المظفر فى الأمر لأنه إن سهل عليه الأخذ من أموال العامة فليس من اليسير عليه أن يأخذ من أموال الأمراء دون أن يحدث ذلك شغباً فيهم قد يوقد فى البلاد فتنة يصعب إطفاء نارها، فبعث إلى الشيخ ابن عبد السلام، وشرح له صعوبة الأخذ من أموال الأمراء، وتلطف معه ليفتيه بجواز الأخذ من أموال العامة إذا صعب الأخذ من أموال الأمراء، فلم يرض ابن عبد السلام وقال له: " لا أرجح فى فتواى لرأى ملك أو سلطان، وذكره بالله وبالعهد الذى قطعه على نفسه أن يقوم بالعدل وينظر لمصلحة المسلمين، وأغلظ له فى ذلك حتى لم يشك الحاضرون أن السلطان سيقبض عليه فما كان من الملك المظفر إلا أن أغرورقت عيناه بالدموع وقام إلى الشيخ فقبله على رأسه قائلاً: "بارك الله لنا ولمصر فيك، إن الإسلام ليفتخر بعالم مثلك، لا يخاف فى الحق لومة لائم"(١).

وحقاً حافظ باكثير على إظهار هذه الشخصية الثابتة التى تلتزم الفكرة الواحدة والصفة التى لا تتغير منذ ظهورها فى القصة حتى نهايتها، " فلا تؤثر فيها الحوادث ولا تأخذ منها شيئاً "(٢)، وتظل موضوعية ذات قيمة، وفنية تجرى على نسق مستمد من أصول القص الحديث، ومن الشخصيات المجاهدة التى قدمها الكاتب فى روايته

---

(١) وا إسلاماه، ص ١٧١ – ١٧٢.

(٢) فن القصة، محمد يوسف نجم، ص١٠٣.

وا إسلاماه (شخصية بيبرس) التى تتشابه مع شخصية قطز فى بعض الوجوه وتختلف عنها فى كثير من الصفات والسلوكيات ، وقد قدمه باكثير مملوكاً فى سوق النخاسة منذ طفولته ، وقدمه من كبار المماليك التابعين للأمير أقطاى المنافس لعز الدين أيبك فى القيادة والرياسة وأمور البلاد ، وقدمه مناوئاً لقطز فى كثير من الأحيان ، وقدمه مقاتلاً جريئاً بجوار قطز فى معركة عين جالوت ، ولكن باكثير طرح فى هذه الشخصية منذ البداية غيرة واضحة ومنافسة قوية لقطز ، وجعل العلاقة بينهما تتجاذبها عوامل المنفعة والمكافأة مظهراً بذلك جانباً سيئاً فى أكثر تصرفاتها ، ولعل ذلك كان مبرراً فى تجرؤ بيبرس على قطز حتى أنه هم بقتله لأنه لم يعطه إمارة حلب مكافأة له فى قتاله التتار، ورغم أن الكاتب قدم بيبرس مقاتلاً شجاعاً فى معركة فارسكور أمام الصليبيين ، وأظهره فى صورة لم يصل إليها قطز ، وأرجع إليه الفضل فى هزيمة التتار لحسن بلائه وتجلده ، رغم كل ذلك تركه دون عناية تليق بما قدمه كما فعل مع قطز فى كثير من المواقف وحدد العلاقة بين الشخصيتين وجعلها متعلقة بهدف مشترك بينهما وهو قتال التتار، وحرص قطز الشديد على أهمية الانتفاع بقوة بيبرس وشجاعته وقد صور الكاتب هذا الحرص فى حوار دار بين قطز، ومساعده أقطاى المستعرب ، " قال السلطان : لا يا أقطاى لا نستغنى عن بيبرس إنى لا أريد أن أحرم المسلمين شجاعة هذا الرجل وقوته ، وقد رأيت منه انبعاثا للخروج ورغبة صادقة فى قتال التتار ، ولعل الله ينصر به المسلمين نصراً مؤزراً " (١).

ويبرر باكثير فعلة بيبرس الشنيعة ، حينما هم بقتل قطز- وجاء هذا التبرير وكأنه لوم لقطز حينما وعد بيبرس بإمارة حلب ثم عدل عن رأيه ، خوفا من أن يستقل بها عن مصر، وينافس السلطان فى ملك مصر ، وكانت حجة المنع هذه كما صورها الكاتب ، وإن

---

(١) وا إسلاماه ، ص ١٨٨ .

كانت لا تخلو من المبالغة والزهد ، أنه سيتنازل له عن ملك مصر، خاصة أنه حقق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفقد زوجته ولم يعد له مأرب فى الحياة ، ويمكن القول أن الكاتب لم يعط هذه الشخصية الاهتمام المناسب لما قدمته ، وجعلها شخصية نامية فى مناوأتها لقطز من الناحية الموضوعية ، ومن الناحية الفنية جعلها تنمو بنمو الأحداث مشاركة فى أهم أحداث عصرها ، ولم ينس أن يصور بعضا من أبعادها السلوكية والنفسية الداخلية والخارجية .

ومن الشخصيات النامية فى رواية وا إسلاماه شخصية- جهاد – أو جلنار، التى ساعدت كثيرا فى كشف بعض الجوانب المتعلقة بالحب والوفاء والإخلاص فى شخصية قطز، وقد حافظ الكاتب على خيوط العلاقة التى نسجها بين البطلين ، مما أضفى عليها نوعا من التوحد فى المقصد والهدف ، ورغم أنهما ابتعدا كثيراً وتاها فى أتون الصراعات والأحداث ، نرى أن الكاتب كان يشعرنا دائما بأن تلاقيهما أمر محتم ، خاصة حينما ربط دعاء الشيخ العز لقطز بتحقيق الرؤيا بأمر تلاقيهما وزواجهما. وتدخل شخصية جلنار من الناحية الموضوعية تحت مصنف الشخصية النسائية المجاهدة، التى تعلى الأهداف الإسلامية الدينية فوق ماعداها من أمان ورغبات ، وحسنا فعل الكاتب فى تصوير بعض المشاهد التى تكشف عن صلابة هذه الشخصية وقوتها ، كما صورها الكاتب مقاتلة شجاعة فى صفوف المسلمين ، حتى سقطت شهيدة فى حومة الوغى معلنة بذلك أن الجهاد حق وأن الإسلام باق وخالد والأشخاص إلى فناء مهما تقدست أعمالهم ومراتبهم فى الحياة ، وتلك عظة أخرى جاءت فى هذه الشخصية ، استطاع الكاتب أن يستخلصها من مشهد الموت والشهادة .

٥- أبرز شخصيات رواية (الفارس الجميل) :

يصدر الكاتب روايته الفارس الجميل بآية قرآنية ، تلخص الهدف الروائى وتجعله محصوراً فى الأثر المترتب على النزاعات الشخصية بين الأصدقاء وأبناء العم تقول الآية " وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ "(١)

صدق الله العظيم

ويتضح أن الآية تقرر مسؤولية كل إنسان عن عمله ، وأن الأبناء يلحقون بآبائهم إذا ساروا على تقواهم وهداهم ، ومن خلال هذه المعانى أراد باكثير أن ينبه إلى حقيقة هامة ، وهى أن ما يفعله الأبناء ليس مسؤلية الآباء ، وإن عظم الأمر وبات خطيرا ، حيث تصور الرواية قصة الصراع بين أبناء معاوية بن أبى سفيان ، وأنصار على بن أبى طالب على السلطة ، ففى سبيل المجد الدنيوى تناسى الفريقان ما كان عليه السلف الصالح من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم مع قرب العهد بهم ، والفكرة التى يريد باكثير أن يثبتها من وراء هذا الصراع ، هى أن النتيجة المترتبة على الخلافات والانشقاقات والتناحر من أجل السلطة ، تكون دائما ضعف الأمة وهوانها فى نظر الخصوم .

حيث لا سبيل إلى التفوق والتقدم إلا بالتماسك ونبذ الفرقة ، فالكاتب يقدم هذه النتيجة الواقعية لأهل زمانه من أحداث تاريخية وقعت بالفعل ، محذراً من تصدع الأمة ومطالباً بالوحدة الإسلامية لمجابهة التحديات التى تحيط بالأمة من كل جانب .

ويلتقط الكاتب أشخاصه من تلك الأحداث الدامية ، التى شهدتها فترة الصراع بين الأمويين ويمثلهم عبد الملك بن مروان ، والزبيريين ويمثلهم عبد الله بن الزبير وأخوه مصعب بن عمير.

---

(١) الآية (٢١) من سورة الطور – وردت هذه الآية فى مقدمة الرواية المنشورة فى مجلة القصة ، الأعداد ١٤-١٥-١٦ ولم ترد فى صدر الرواية المنشورة عن مكتبة مصر ، سنة ١٩٩٣ .

أ) الشخصية العاطفية (مصعب بن عمير):

ويركز الكاتب على شخصية مصعب التى تحمل عنوان الرواية – الفارس الجميل لما تحمله هذه الشخصية من مؤهلات روائية تجعلها فى مقدمة الشخصيات الأخرى فمصعب جميل المنظر ، فارس مقدام ، تحيط به هالة رومانسية وعاطفية ، أكتسبها من كثرة افتنان النساء به لما وهبه الله من خلقة جميلة ، يؤيد ذلك زواجه باثنتين من أشهر نساء أهل زمانه وأجملهم ، وهما سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله رضى الله عنهما ، وقد أبرز الكاتب عاطفة مصعب تجاه أزواجه فصور الشوق وحب القرب وما يعترى ذلك من أمور نفسية وسياسية لها صلة بأحداث الرواية ، أيضا أوضح الكاتب أثر المشاحنات والتنافس على السلطة بين الأصدقاء والأشقاء ، فمصعب بن عمير وعبد الملك بن مروان أصدقاء طفولة ، جمعتهم مراتع الصبا ، حيث المحبة والتعاطف فى مدينة رسول الله صلى اله عليه وسلم ، وقد بدا ذلك حينما حاول مصعب جاهدا أن يتجنب المواجهة الحربية مع عبد الملك ، ولكن الصراع على الخلافة لم يدع لهما خيارا آخر، ومما سبق يتضح أن شخصية الفارس الجميل "هى شخصية مصعب بن عمير" ، وقد صورها الكاتب من عدة جوانب .

الأول : الجانب الشخصى المتعلق بوصفه من الخارج وعلاقاته بأزواجه وموقف العصر منه .

الثانى : موقفه من الصراع على السلطة ومناصرة أخيه عبد الله بن الزبير حينما بايعه أهل المدينة بالخلافة عقب مقتل الحسين .

الثالث : موقفه من الأحداث ، وقد برزت تجليات كثيرة فى هذا الجانب منها موقفه من أخيه ومدى تأييده له فى أمره ، وموقفه من صديقه ورفيق صباه عبد الملك بن

مروان ، خاصة وأنه المنافس لأخيه عبد الله فى أمر الخلافة ، ووقوع مصعب فى دائرة الصراع النفسى وتوزع ضميره وحسرته الشديدة على العلاقة الحميمية التى تجمع بينه وبين عبد الملك ، وحرصه الشديد على عدم قتال صديق صباه وحرصه على عدم تخليه عن أخيه ، ومساندته له فى أمر الخلافة .

وقد أبرز الكاتب ذلك الصراع النفسى ، فى حوارات داخلية وأحاديث ذاتية كشفت عن كثير من الاضطرابات الداخلية فى نفس مصعب ، وأنه كان دائماً يتمنى العيش فى ظل المحبة والسلام ، وأن ينعم الناس بالأمن والأمان ، لكن الأقدار لم تجعله ينعم بما يريد ، بل جعلته يتجرع غصص الحرب وقتال الصديق ، وجعلته يضيق بأخيه ويتصرفاته فى عدم حرصه على استمالة المناصرين والمؤيدين له .

ولأن باكثير من أنصار الفكرة الحميدة ، فإنه يسوق الأحداث ويقدمها للجيل الحالى ، مؤكداً على مبدأ الوحدة والمحبة ، حيث لا تقدم ولا ازدهار بدونها ، وأن الفرقة بين صفوف الأمة تؤدى إلى الشتات ، والحروب الداخلية تؤدى إلى ضعف الشعوب ووهنها وقد استخلص الكاتب هذه النتائج ، من رصد الأحداث وتصوير وجهة نظر الأبطال ، ولم يقحم نفسه فى لب الصراع ، ولم ينتصر لفئة على أخرى ، بل ترك الموضوع الروائى يسير حسب مقتضيات الفن ، حتى حينما تعرض لقضية الحسين رضى الله عنه ، من خلال مواقف السيدة سكينة مع زوجها مصعب ، لم نر لغته ولا أحاديثه تعلو نبرتها ، بل أشار من بعيد إلى جذور الصراع بين بنى أمية وآل البيت ، والصراع على السلطة ، واكتفى برأى السيدة سكينة فقط فى هذا الجانب ، من خلال تعليل زواجها من مصعب ، حيث أرجعه إلى أهداف سياسية أهمها المطالبة بثأر الحسين من بنى أمية ممثلة فى عبد الملك بن مروان .

كما كشف الكاتب عن نفس مطمئنة طيبة تسكن بين جوانح مصعب ، حينما حاول أن يتجنب قتال صديقه القديم عبد الملك بن مروان ، والآخر لا يجد حرجاً فى قتاله بدافع الحكم والسلطة ، فكم غيرت زينة الدنيا فى قلوب الناس ، وجعلتهم أذلة لشهواتهم متناسين أجمل المعانى وأرق العلاقات الإنسانية ، وقد تجلى ذلك فى الحوار الذى دار بين مصعب وعبد الملك ، وفيه آثار الكاتب ذكريات كل من الصديقين ، وشوقهما لما كان بينهما ، وأن المحبة والصداقة أقوى من أى شئ فى الدنيا ، غير أن كلاً منهما تمسك بموقفه تجاه الأحداث ، وأعلنها عبد الملك صراحة (**أن الملك عقيم**) وهى عبارة تعنى أن الود القديم شئ والتنافس على الملك شئ آخر ، وأنه لا بقاء إلا للأقوى .

وتطرق الحوار إلى المفاضلة بين عبد الله بن الزبير وبين عبد الملك بن مروان ، وأثار الكاتب قضية البخل ، بخل عبد الله على أصحابه ، وفى المقابل كرم عبد الملك وعطاءاته المستمرة لأصحابه ومناصريه ، فقال :

قال مصعب :

- أليس من نكد الدنيا يا عبد الملك ، أن تضطر لمحاربتى وأضطر لمحاربتك ؟
- بلى والله ، ولكن الملك عقيم .
- أفلا نبرم بيننا عهداً ألا يقاتل أحدنا الآخر ما حيينا أبداً ؟
- قد علمت يا مصعب أنى لست أقاتلك على شئ ، وإنما أقاتل عبد الله أخاك .
- بلى تقاتلنى إذ تقاتل أخى .
- أخلع أخاك وأعلن نفسك مكانه ، فستجدنى أكف عنك وأقاتله معك .
- معاذ الله أن أفعل ما ليس لى بحق .
- أنت أحق والله بهذا الأمر منه .

- ومنك .
- لا بل تفضلني في أشياء وأفضلك في أشياء . ولكننا سنبرم بيننا حينئذ العهد الذي اقترحت.
- هيهات ! إنك لتعلم أن عبد الله بن الزبير أفضل مني ومنك .
- بأي شئ يفضلني ؟
- أبوه الزبير بن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أفضل من أبيك مروان بن الحكم . وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وهي أفضل من أمي وأمك ، وهو أول مولود ولد للمسلمين في المدينة عقب الهجرة .
- كل هذا حق ، ولكنه هو لا يفضلني .
- بل هو أتقى لله منك . لقد كنت تلازم المسجد قديماً حتى لقبوك حمامة المسجد ولكنك ما لبثت أن شغلك الملك عن صلاتك وفقهك . أما عبد الله أخي فلم يشغله شئ عما عود عليه نفسه من صلاته وتهجده .
- ولكنه بخيل ، والبخل لا يسود أبداً .
- ولو شاء أن يتكرم على أصحابه وأنصاره بما في بيت مال المسلمين لفعل ، ولكنه أتقى لله.
- ألا تعلم يا مصعب أنه بغيض إلى الناس ، وأنني أحب إليهم منه ؟
- الناس لا يبغضونه وإنما يبغضون الحق ، وهم لا يحبونك أنت وإنما يحبون المال الذي تشتري به ضمائرهم .
- وسكت عبد الملك قليلاً ثم قال :

- إن كان عبد الله بن الزبير كما زعمت ، وكنت أنا أنازعه هذا الأمر بغير حق ، ففيم عرضت على أن نتوادع ؟
- إنما عرضت ذلك إبقاء على الود الذى بينى وبينك .
- الود آثر عندك من الحق ؟
- نعم .. أو ليس كذلك عندك ؟
- لا أدرى أيهما اختار لو خيرت ولكن الله لم يحوجنى إلى ذلك ، إذ كان فى مقدورى لو وافقت أنت ، أن أجمع الحق والود فى ناحية واحدة .
- ماذا تعنى ؟
- أعنى ما قلته لك من قبل : أن تخلعه وتعلن الأمر لنفسك ، فأقاتله هو ولا أقاتلك .
- بل أردت ياغدر أن تتغدى بى ، ثم تتعشى به ؟
- لا والذى عقد بيننا هذه الخلة ، لا أتعرض لك حينئذ أبداً .
- وأنا والله لا أخون أخى أبداً . (١)

وهكذا يستمر الحوار بين الأصدقاء تتجاذبه العوامل الخارجية والداخلية فالعوامل هى مناقشة الصراع الدائر بينهما ، ومن أحق بالملك ، ومحاولة انتصار كل منهما على الآخر ، والعوامل الداخلية هى محاولة الاعتماد على الود القديم لفك هذا الاشتباك بغية التأثير المباشر وعدم المواجهة الحربية ، ولكن " **الملك عقيم**" ومما يحسب للكاتب أنه عرض القضية من جميع جوانبها فى هذا الحوار وكشف عن جوانب متعددة فى الشخصيات ، فهذا عبد الملك بن مروان يقدمه الكاتب لأول مرة ويحرص على أن

(١) رواية " الفارس الجميل" ، الصفحات ٧٩ : ٩٢ .

يكشف عن كثير من شخصيته ، صغيراً ، وكبيراً ، وقائداً ، وصديقاً حميماً وينتهى الحوار بإقامة مصعب فى ضيافة عبد الملك ثلاثة أيام ثم رحيله إلى الكوفة .

وقد وفق الكاتب حينما جعل النهاية مفتوحة ، فلم يحسم الأمر لأى من الفريقين ويعد هذا اقتصاد فى الحدث ، فالنهاية معروفة ولا تحتاج إلى سرد ، ويدل هذا التصرف على أن الكاتب يريد أن يستخلص العبر والمواقف فى مثل هذه الأمور ، ويترك النهاية للصديقين ، محاولاً بث الشفقة عليهما ، حينما يتحولان من أصدقاء إلى أعداء ، خاصة وأن هذا العداء له تأثير مباشر على الأمة .

ومن الجوانب التى حرص الكاتب على تصويرها فى شخصية الفارس الجميل **مصعب بن عمير** : الجانب المتردد ، وذلك حينما يعجز عن حسم بعض الأمور الحربية والسياسية ، ويمتد هذا التردد إلى أموره الشخصية والزوجية ، فحينما يقبل على زوجاته يتردد فى أيتهما يفضل ولأيتهما يتقرب ، غير أنه يفكر كثيراً فى ترضيتهما ، ومن هذا التردد الملازم لمصعب كشف باكثير العالم الداخلى للشخصية ، فحينما قتل رجال مصعب ثلاثة آلاف رجل من أنصار المختار رغم أنهم أعلنوا التوبة وطلبوا العفو ، ترك هذا التصرف أثراً سيئاً فى نفس مصعب كلما تذكره ، وزاد من توتره كثيراً أن عبد الله بن عمر قد لامه كثيراً على هذا التصرف المسرف .

وقد صور باكثير هذا الحوار الذى دار بين مصعب وعبد الله بن عمر فى قوله :

" واشتاق أن يرى أولئك النفر ، فذهب إلى عبد الله بن عمر ليذاكره بذلك ، فلما لقيه أعرض عنه بن عمر وجعل يلومه على ما فعل بأصحاب المختار كيف قتل فى يوم واحد ثلاثة آلاف رجل ، فأخذ مصعب يعتذر ويقول : إنهم فسقوا إذا اعتقدوا أن صاحبهم يوحى إليه .

- قال عبد الله : هلا استتبتهم أولاً ، فمن لم يتب منهم قتلته ؟
- ما كانوا ليتوبوا أبداً .
- ألم يعرضوا عليك أن يقاتلوا معك ؟ أفلا يدل ذلك على أنهم ترجى توبتهم ؟
- لقد أردت أن أقبلهم ، لولا أن أصحابى من وجوه أهل العراق عارضوا فى ذلك وقالوا اخترنا أو اخترهم .
- ما إخالهم إلا نظروا فى ذلك لصالح عبد الملك بن مروان ، خشية أن تقاتله بهؤلاء .
- وصاح مصعب مجيباً عبد الله بن عمر :
- ماذا تقول يا ابن عمى ؟ أتشك فى نية أصحابى ، وإخلاصهم ؟ أو تتهمهم بالعمل لصالح عبد الله بن مروان ؟
- أنا لا أتهم أحداً ، ولكن إن كان لأحد صالح فى قتل هؤلاء فهو عبد الملك بن مروان
- إنما ألح أصحابى فى قتل هؤلاء ، لأن هؤلاء قتلوا وجرحوا كثيراً من أولادهم وعشائرهم.
- إنى لا ألومهم بل ألومك أنت . ويحك خبرنى يا مصعب لو أن رجلاً أتى ماشية الزبير فذبح منها ثلاثة آلاف رأس فى غداة واحدة ، ألست تعده مسرفاً ؟
- بلى
- أفتراه إسرافاً فى البهائم ولا تراه إسرافاً فيمن ترجو توبتهم ؟
- فتأثر مصعب مما سمع ، ووقف مكتئباً لا يجد جواباً .
- فانصرف عنه عبد الله بن عمر وهو يقول :
- يا ابن أخى أصب من الماء البارد ما استطعت فى دنياك .

- فكان لهذه الكلمة الأخيرة أثر عميق فى نفس مصعب لا تمحوه الأيام ، فقد ظل يذكرها طول حياته ، وكلما فكر فى معناها اقشعر بدنه وتقطع قبله ندماً وخشية (١) .

كذلك من المواقف والأحداث التى ساقها الكاتب ، وكشفت عن تردد مصعب وعدم سيطرته الكاملة على جنوده وأتباعه ، موقفه من زوجتى المختار ، فبعد مقتل المختار وهزيمة رجاله وأسر زوجتيه ، سألهن مصعب عن موقفهن من المختار ، فقالت : الأولى مثل قوله إنه كافر ملحد فأطلق مصعب سراحها ، وأبت الثانية أن تتهم زوجها بالكفر والإلحاد فحار مصعب فى أمرها وسأل عن أهلها وبعثها إليهم ، لكن رجاله قتلوها فى الطريق ، وترك هذا أثراً سيئاً فى نفسه وقد أنشد فيها عمر ابن أبى ربيعه أبياتاً قال فيها :

إن مـــن أكـــبر الكبـــائر عنـــدى ... قتـــل حســـناء حـــرة عطبـــول

قتلـــت بـــاطلاً علـــى غـــير ذنـــب ... إن لله درهـــا مـــن قتيـــل

كتـــب القتـــل والقتـــال علينـــا ... وعلـــى الغانيـــات جـــر الـــذيول (٢)

ولم يستطع مصعب أن يطرد من ذهنه خيال" عمرة "وهى مضرجة بدمائها فى الأرض القفر ولا من سمعه صدى أبيات ابن أبى ربيعة التى سارت بها الركبان وانتشرت فى كل مكان (٣) .

ب) الشخصية العاطفية المتعقلة: (عبد الله بن الزبير):

ومصعب أخ غير شقيق لعبد الله بن الزبير ، وقد ولاه عبد الله الكوفة حينما بويع بالخلافة عقب مقتل الحسين ، فقام مصعب بإخضاع الخارجين على أخيه ، وقد أبدى

---

(١) الرواية ، ص ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٠ ، ٤٦ .
(٢) الرواية ، ص ٣٦ .
(٣) الرواية ، ص ٣٦ .

من الشجاعة ضروباً وفنوناً كثيرة ، لكن الرواية قدمت الشخصيتين وبينهما فروق كبيرة فمصعب كريم يحب المباهاة يحب أن تكوله سيرة طيبة بين الناس ، عليه مسحة عاطفية ورومانسية كبيرة ، يضعف أمام نسائه ، يتردد كثيراً ، لكنه كريم جواد معطاء كما صورته الرواية .

وعبد الله ممن يحكمون العقل ، حتى بدا في صورة غليظة ، فهو لا ينفق إلا بحساب ، حتى اتهمه الناس بالبخل ، وكان عليه أن يستميل الناس بالإنفاق وطلاقة اليد ، وقد حرص الكاتب على تصوير هذا الجانب في شخصية عبد الله بن الزبير ، ومن ذلك ، حينما قدم مصعب على أخيه بوفد من العراق ليعطيهم ، ويكرم وفادتهم ، ولكنه قويل بجفاء أخيه ، وشعر بخيبة أمل ، ورد أصحابه ومنع عنهم العطاء ، وأرجع الكاتب هذا البخل في شخصية عبد الله بن الزبير إلى عدم الحنكة السياسية في تصريف الأمور وكسب الرجال ، فقال مصوراً حال مصعب بعد هذه الواقعة :

" وضاق مصعب بأخيه صدراً ، فاختلى به وجعل يلومه ويعنفه على ما صنع بوفد العراق ، وقال له : إنك لن توفق أبداً ، أجيئك بوجوه العراق ونخبتهم لتكرمهم فيكونوا قوة لك ، فإذا أنت تهينهم وتمنعهم من عطائك ، ما هكذا ياأخي تكون السياسة ، وما هكذا تحفظ الخلافة .

فقال له عبد الله :

- ويلك يا ابن أخت بني كلب ، أتريد أن تفتنني عن ديني لأفرق مال الله بددا في هؤلاء وما فيهم إلا غني عنه ، وليس بينهم فقير يستحق العطاء ولا مسكين بئست الخلافة إذن إن كنت لا أحفظها إلا بشراء الذمم كما يفعل آل مروان .
- إذن فلن تبقى لك أبداً .

- إذن فلا كانت .
- علام إذن تفرق كلمة المسلمين وتجعل لهم خليفتين ، خليفة فى مكة وخليفة فى الشام
- ويلك إنما أردت أن أحملهم على المحجة البيضاء ، وأنقذهم من طمع آل مروان وتكا ثرهم وفسادهم .
- فإنك لن تصل إلى ذلك بكزازة اليد والعطاء المصرد .
- هلم يا مصعب ، لقد أردت أن أحاسبك أنت فإذا أنت تحاسبنى !
- فى أى شئ تريد أن تحاسبنى ؟ ألم أقضى لك على المختار بن أبى عبيد ؟ ألم أوطد لك حكم العراقيين ؟ ألم أجمع حولك الأنصار ؟
- ولكن ماذا فعلت بمال الله الذى جعله فى يدك ؟ ألم تمهر كل من سكينة بن الحسين وعائشة بنت طلحة خمسمائة ألف درهم ؟ ألم تعط لعلى ابن الحسين الذى حمل إليك أخته من المدينة إلى البصرة أربعين ألف دينار" (١) .
- ويستمر هذا الحوار على هذا النسق ، فكل منهما يحاول إبطال تصرف صاحبه وقد برز التناقض الكبير فى كل من الشخصيتين ، وقد عمد الكاتب إلى ذلك ليقول إن الشح والبخل من أسباب فقدان عبد الله التأييد الكافى للخلافة وأنه لو كان كريماً يكرم الوفود ، لما انفض الناس من حوله .

حـ) شخصيات جانبية :

١- سكينة بنت الحسين – رضى الله عنهما :

من الشخصيات التى اهتم الكاتب بتقديمها ، وكانت سبباً في تجلية الجانب العاطفى فى شخصية مصعب ، شخصية سكينة بنت الحسين ، وقدمها الكاتب زوجة

---

(١) الفارس الجميل ، على أحمد باكثير ، ص ٣٩ – ٤٠ – ٤١ .

لمصعب ، مما جعل الأحداث تأخذ بعداً جدياً فى نفس مصعب ، وتجعل أمره كله جد فبجانب ملاحتها وشهرتها وتفوقها الأدبى واللغوى ونسبها الشريف ، إلا أنها بقوتها الشخصية كانت سبباً فى دفع مصعب إلى معالى الأمور ، فحينما يركن إلى الدعة والراحة تذكره بضرورة قتال عدو الله المختار بن أبى عبيد ، وتذكره بضرورة أخذ الثأر من قتلة أبيها وقد ركز الكاتب على هذه الشخصية لسببين الأول : إبراز النزعة الوجدانية فى شخصية مصعب ، والثانى : متعلق بالحدث العام فى الرواية وهو الصراع المستمر بين الطائفتين وتزكية فكرة قتال الأمويين .

ويكشف هذا الحوار عن بعض هذه الجوانب :

- قالت سكينة : - " ما هكذا يصنع من يعشق معالى الأمور" .
- قال لها مداعباً : - كيف يصنع إذن ؟
- لا يلتفت إلى قريب أو حبيب ولا يستنيم لراحة أو دعة حتى يجهز على عدوه ويفرغ منه
- إن أردت الحق يا ابنة الحسين فإنى لا أعتبر المختار ابن أبى عبيد الله ذلك العدو الذى أحرص على قطع دابره .
- ماذا تقول ؟
- إن له يداً عندى لا أنساها أبداً .
- ماذا تعنى ؟
- أعنى ما كان من تشيعه لآل بيتك ومطالبته بدم أبيك .
- لا تحاول أن تخدعنى ، ما أنت إلا آلة فى يد أخيك أبى خبيب فلو أمرك بقتلى لفعلت .

- ويحك يا سكين أما تكفين عن تنديدك بأخى عبد الله بن الزبير وبغضك إياه .
- لا أستطيع أن أنسى أبداً أنه هو الذى دفع أبى إلى الخروج وحرضه عليه وهو يعلم ما هو صائر إليه ليخلو له الجو فى مكة (١) .
- ويستمر هذا الحوار على هذه الوتيرة من الصد والتحريض على ضرورة قتال أعداء الله ، ويكشف الحوار أيضا عن أبعاد قضية الحسين ، وصداها فى ذلك الوقت مما ألقى الضوء على كثير من الصراعات التى كانت دائرة آنذاك .

٢ - شخصية الأحنف بن قيس :

ومن الشخصيات المساعدة التى كان لحضورها الأثر المباشر فى كشف كثير من الجوانب فى الشخصية الرئيسية ، شخصية " الأحنف بن قيس " ، وكان صديقاً لمصعب يستعين برأيه ومشورته فى الأمور الحربية والسياسية وكذلك يستشيره فى كيفية معاملة أزواجه .

وتمثل شخصية **" الأحنف بن قيس "** ضمير مصعب ، الذى يؤنبه دائماً على تصرفاته ، ويوجه فكره دائماً إلى الصواب وكان دائماً يقول له : " أنت يا مصعب لا عيب فيك إلا أنك زئر نساء" (٢) كذلك من الشخصيات الجاهزة فى رواية الفارس الجميل شخصية الشاعر العربى جميل بثينة وجاء بها الكاتب لإحداث نوع من المفارقة الضمنية التى تظهر ما فى شخصية مصعب من جمال المنظر ، وشهرة فائقة بين العرب ، وحتى لا تكون هناك رتابة فى الأحداث .

وعلى ذلك فشخصية مصعب هى الشخصية البطل فى الرواية ، فالأحداث تدور فى فلك هذه الشخصية ، وتبدو ذات أبعاد متعددة ، فهناك البعد البطولى والأخلاقى

---

(١) السابق ، ص ١٣ ، ١٤ ، ١٥

(٢) الفارس الجميل ، ص ٢٢ .

وهناك البعد العاطفى والسياسى ، ولم يكتف الكاتب بوصف الشخصية من الخارج فتناولها من الداخل ووصف معاناتها ، فى تقبل الأمور التى لا تتوافق مع معطياتها الأخلاقية والنفسية ، وقد تحددت ملامحها العامة فى العبارة التى وردت على لسانها حينما تمنى الحياة الآمنة ، فقال : "آه ما أجمل الحياة فى ظل السلام حيث لا حرب ولا خصام " (١) .

٦- أبرز شخصيات رواية (ليلة النهر) :

أ) الشخصية الموسيقية (فؤاد حلمى) :

" الشخصية قبل كل شئ ، مقولة من مقولات القيمة ، وهى تحقيق لقيمة وغاية وجودية وهى أيضاً رمز على التكامل الإنسانى ، والقيم الدائمة ، وهى شاملة إذ تستوعب الروح والنفس والجسم جميعاً " (٢) .

هذه الإشارة إلى الشمولية التى تجمع كل العناصر الإنسانية ، والتى تتعلق بالروح والنفس والجسد ، تعد المدخل الرئيسى لشخصية " **فؤاد حلمى** " بطل رواية ليلة النهر لعلى أحمد باكثير ، حيث انطلق الكاتب إلى العالم الداخلى للشخصية واصفاً نوازعها الروحية والنفسية ، مقدماً عدة أبعاد منها ما هو متعلق بالموهبة ودرجاتها وتنوعها ما بين اللحن الموسيقى والنظم الشعرى ، وما هو أيضاً متعلق بالبعد العاطفى الرومانسى ، وشخصية فؤاد حلمى ، شخصية حقيقية ليس لخيال الكاتب فضل فى نسجها أو ابتداعها ، إنما الفضل يكمن فى تقديمه لها وشرح أبعاد تفوقها وتفردها ومعاناتها النفسية والإبداعية وبتقديم على أحمد باكثير لهذه الشخصية ، يصبح فى زمرة الكتاب الذين يهتمون بأحوال

---

(١) السابق ، ص ٥٤.

(٢) العزلة والمجتمع يكولاى بردياف ت – فؤاد كامل – مراجعة على أدهم ، ص ١٤٨ ، المنشورات الجامعية ، طرابلس ، لبنان ، ط –١- ١٩٨٥م.

غيرهم وما يتعلق بسيرتهم الشخصية وما اعتراها من نجاح وإخفاق وفتور ، إذ من الضرورى أن يكتب الكاتب " عن أحوال غيره من المواطنين وليس عن أحواله ، وعن مشكلاتهم العامة وليس عن مشكلاته الخاصة ، وبواسطة خطاب غيرى يعتمد على ضمير المخاطب أو الغائب ، وليس بواسطة خطاب ذاتى يتمحور حول ضمير المتكلم الذى يمكن أن يغوص إلى قرارة الشعور الفردى " (١) ، ومما يؤكد ذلك ، ويؤكد أن شخصية فؤاد حلمى شخصية حقيقية ، اجتهد الكاتب فى جمع مادتها وسيرتها وأخبارها ، ما ذكره فى مقدمة الرواية التى أطلق عليها كتاب وليس قصة أو روايه يقول : " فى وسعك اليوم أيها القارئ الكريم أن تشهد فى هذا الكتاب ما يشوقك من حياة الموسيقار المصرى العظيم المرحوم الأستاذ فؤاد حلمى " ثم يذكر مصادره الروائية فى رسم ملامح هذه الشخصية يقول :

" وقد استقيت حوادث هذه القصة وأخبارها من كل من كانت له صلة قريبة أو بعيدة بصاحب السيرة ، غير أن معظمها تلقيته عن صديقه الحميم الأستاذ مراد السعيد الذى تفضل فأعارنى مذكراته عن تلميذه الكبير ولم يضن علي بشئ أردت الإطلاع عليه من شؤونه وأحواله إلا ما يراه من قبيل السر الذى لا يذاع ، وقد وجدته حفظه الله منهمكاً فى إعداد الكتب التى ينوى إخراجها عن الفقيد العظيم يجمع فى أحدها جميع نوتاته الموسيقية ويجمع فى ثانيها قصائده الشعرية ، وخصص الثالث لدراسة حياته العاطفية والظواهر النفسية التى انبثقت عنها وتفسيرها على ضوء علم النفس الحديث" (٢) .

وتوضح هذه المقدمة أن الكاتب ركز فى شخصية " **فؤاد حلمى** " على الجوانب الإبداعية والروحية والنفسية ، وقد تأكد ذلك عند قراءة الرواية منذ صفحاتها الأولى خاصة أنه بدأها بالحديث عن ميل فؤاد إلى الموسيقى ، وطبيعة تكوينه المرهف .

---

(١) زمن الرواية د/ جابر عصفور ، ص ٢٥٣ – ٢٥٤ – الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٩م .
(٢) مقدمة الرواية .

ويمكن القول أن تصرف الكاتب فى الشخصية يدور حول محورين أساسيين

الأول : تقديم الشخصية الإبداعية ومعالجة هذا الإبداع وتوزعه بين الموسيقى والشعر

الثانى : يتعلق بمجموعة العلاقات التى تربط فؤاد ببقية الأشخاص ، وإن كانت هذه العلاقات لا تبعد عن التوجيه والمساعدة لتغذية هذه النزعة الفنية الإبداعية للشخصية والتى تعمق رؤية الكاتب فى توضيح الجوانب الإبداعية ودفعها إلى التطور والنبوغ .

ورواية ليلة النهر – ترجمة حقيقية لشخصية فؤاد حلمى – بكل أبعادها الاجتماعية المتعلقة بالأسرة والأصدقاء ، والعاطفية المتعلقة بغراميات فؤاد وهيامه برفيقة صباه إحسان والتى حرم من الفوز بها .

وكما سبق فقد عكف الكاتب على الجوانب الإبداعية فى شخصية فؤاد ، فمنذ الوهلة الأولى فى المدرسة الأولية ، يلاحظ سيطرة النزعة الفنية الموسيقية على الطفل فؤاد فتعجب به مدرسة الأناشيد " فقد راعها أن لهذا الصبى أذناً موسيقية عجيبة تلقط اللحن لفظاً أول ما تسمعه ، وأن له صوتاً حلو الجرس قوى النبرات ، جياش الرنين فلا يكاد ينشد مع زملائه فى الفصل حتى يعلو صوته على أصواتهم ، ويمتاز عنها برخامته وحنانه ، فإذا أصواتهم أوتار ناشزة فوضى تخفت شيئا فشيئاً ، وإذا صوته الوتر الوحيد المنغوم يغالبها جميعا حتى يغلبها " (١) .

ثم تأخذ هذه الموهبة فى النمو تدريجياً ، وبخاصة حينما طلب فؤاد من خاله أن يشترى له الآلة الموسيقية المعروفة " **بالعود** " فكانت دفعة هائلة فى سبيل نضج الموهبة وتكتمل أسباب هذا النضج والتفوق الموسيقى حينما يتصل بمراد السعيد وتنشأ بينهما صداقة قوية استفاد منها فؤاد فائدة عظيمة ، فقد مهد مراد لفؤاد كل الطرق وفتح عينيه

---

(١) رواية ليلة النهر ، على أحمد باكثير ، ص ١٤ .

على آفاق أرحب فى مجال الموسيقى خاصة أن مراد كان دارساً للموسيقى فى إحدى معاهد أوربا ، وكان يقضى معظم أوقاته فى المطالعة والتأمل ولديه مكتبة حافلة بصنوف الكتب فى مختلف الفنون ، ولاسيما الفلسفة والأدب والفنون الجميلة والموسيقى خاصة ويعزف لنفسه بين الحين والحين قطعة يختارها من بتهوفن أو فاجنر أو فردى أو غيرهم من نوابغ الموسيقيين ، وله بضعة ألحان ألفها أيام كان واسع الأمل فى الشهرة والنبوغ فى هذا الفن " (١) .

وتحددت العلاقة بين الصديقين فؤاد ومراد فى النهوض بموهبة فؤاد ، وكان عزاء مراد فى ذلك أنه وجد فى فؤاد مندوحة يستطيع من خلالها أن يحقق بعض أحلامه السابقة ، وارتبط تفوق فؤاد الموسيقى وعلاقته بمراد بإخفاقه وفشله فى دراسته بعد ما كان على رأس قائمة الطلاب المتفوقين سابقاً ، لكن انشغاله بالموسيقى وتشجيع صديقه مراد لم يدع له مجالاً للتفوق الدراسى ، رغم حرص مراد الدائم على نصحه بضرورة الاهتمام بالعلوم المدرسية ، حتى يحقق أمل أمه ويلحق بكلية الطب ويتخرج طبيباً كما رسمت فى مخيلتها ، وحتى يزهو به خاله الذى عنى به منذ الصغر واهتم بترتبيته وتشجيعه حتى يكون عوناً لأمه خاصة وأنها تعلق عليه الآمال الكبيرة بعد موت الأب .

ولم تكن العلاقة الوطيدة بين مراد وفؤاد ذات حدود معينة ، بل إن كلاً منهما وجد فى الآخر انسجاماً روحياً لا يمكن أن يفتر أبداً ، خاصة أن حياة مراد خالية من الاهتمامات العائلية والأسرية ولم يجرب حب الولد ، فقد ماتت زوجته قبل أن يرزق منها بالولد ولكنه يحس فى نفسه أنه لو رزق ولداً ما أحبه أشد من حبه لفؤاد ، فقصاراه فى أغلب الظن أن يكل أمر ولده إلى المدرسة ولا يعنيه أن يتولى تثقيفه بنفسه كما يصنع

---

(١) السابق ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

مع فؤاد ، ولعل حبه لفؤاد أشبه ما يكون بحب الفنان لأثره الجديد الذى لا يزال فى دور التكوين وهو يعتز به ويطمع أن يكون آيته الفنية الخالدة " (١) .

وكان من آثار هذا التبدل الذى طرأ على حياته ، أن استيقظت فى نفسه الرغبة فى إنجاز عمله العظيم ، من بعث الموسيقى العربية القديمة بالاهتداء إلى حل رموزها فأخذ يعمل فى بحثه هذا بهمة ونشاط ، وهو يتمنى على الله أن لا توافيه المنية حتى يطلق تلك الأغانى العربية القديمة من سجونها فتترجع أنغامها فى سماء هذه البلاد مرة أخرى (٢) .

ويصور الكاتب فى هذه العلاقة الوطيدة بين الشخصيتين كيف سنحت الفرصة أمام فؤاد لينهل من علم مراد السعيد ، وكأن القدر هيأ له أستاذاً بمثابة معهد للموسيقى فقد أخذ فؤاد عن مراد بعضاً "**من أصول الموسيقى**" ، وعرف النوتة وبرع فى عزفه جملة من الألحان العالمية الشهيرة وأتقن الضرب على البيانة وأخذ يتمرن على عزف الكمان (٣) .

ولم يقصره مراد السعيد على ما يتصل بالموسيقى بل وجهه نحو القراءة الأدبية ففتح له مكتبة القيمة يختار فؤاد من كتبها الأدبية ما يروق له ، فكان يلتهم الكتب التهاماً ، وأفاد فؤاد من قراءته هذه محصولاً ثقافياً لا يعد ما حصله فى المدرسة إليه شيئاً (٤) .

وفى أحضان هذه العلاقة الحميمية بين الأستاذ والتلميذ ، نمت موهبة فؤاد نمواً اطرادياً ، وقد أسهب الكاتب فى تصوير مدى هذه العلاقة ومدى تفوق فؤاد أثر مساعدة

---

(١) رواية ليلة النهر ، لعلى أحمد باكثير ، ص ٣٢ ، ٣٣ .
(٢) السابق ، ص ٣٣ .
(٣) السابق ، ص ٣٨ .
(٤) السابق ، ص ٣٨ .

مراد له ، خاصة حينما بدأ فؤاد فى تأليف الألحان وعرضها على مراد ، فما كان منه إلا أن يعجب بها ويزيد فى نصحه وتوجيهه وإرشاده ، حتى استوى اللحن الموسيقى تماماً عند فؤاد ، وقد تطرق الكاتب إلى مسألة إبداعية أخرى وهى مسألة الإلهام الشعرى ، وأخذ يعالجها من نواحى متعددة ، منها انعزالية الفنان عن واقعه حينما تلهمه ربة الشعر بعض معانيها ، والمسألة هنا تبدوا أكثر اتحاداً وانسجاماً حيث توحد الموسيقى والشاعر فى آن واحد ، وتوحدت المعانى والمشاعر وتولدت عنهما قصائد ومقطوعات شعرية تجرى على ألحان قد وضعها فؤاد من قبل ، وهذا الإلهام الثنائى المشاعر ، أفاض باكثير فى تصويره والتعبير عنه ، ولم ينكر دهشة وغرابة فؤاد نفسه حينما كان يردد أنغامه وألحانه على مسامع محبوبته "**إحسان**" أثناء نزهتهما النهرية ، فيسمع أشعاراً تأتيه من العالم الآخر تجرى على نسق ألحانه .

ويلاحظ أن الكاتب يستغل عملية الإلهام الموسيقى والشعرى خاصة ، فيوظف الأسطورة . ولكنها الأسطورة القريبة من الخرافة المقبولة ، حينما أدار حواراً فى نهاية الرواية بين فؤاد وملهمه "**الشاعر صاحب الخرابة**" عن طريق الحلم .

يقول الكاتب :

وتلك الليلة رأى فؤاد حينما يرى النائم كأن رجلاً طويل القامة نحيف الجسم يلوح على وجهه الألم والبؤس قد أقبل عليه يقول له: " أما تعرفنى يا فؤاد ؟ ، فيقول له فؤاد : **" لا .. فمن أنت ؟ "**

- أنا صديقك الشاعر صاحب الخرابة وإنى فى حاجة إلى عونك فلا تهجرنى .
- أأنت الذى أسمعنى صوته فى النهر ؟
- نعم فلا تغير عقيدتك فى .

- لماذا لم تسمعنى صوتك وقد ترددت كثيراً على منزلك وترنمت هناك باللحن الجديد الذى وضعته فى ذكراك ؟ أيجب على أن أركب الزورق لتسمعنى ؟
- كلا ولكنك لم تأتنى فى الساعة الموقوتة ، ألا تذكر يا فؤاد ليلة مررت وحدك بالشارع فلما سمعت حسى وليت منى فراراً ، أتذكر كم كانت الساعة إذ ذاك .
- إحدى عشرة .
- فى تلك الساعة يبدأ طوافى يا فؤاد .. لا لا تخشى منى سوءً فإنى رجل طيب لا أضر أحداً . وإنى بحاجة إلى عونك وصداقتك فلا تهجرنى .
- وانتبه فؤاد من نومه وقلبه يخفق والعرق يتصبب من جسمه فقص رؤياه على أمه " (١) .

وشخصية شاعر الخرابة من نسج خيال الكاتب ، استطاع من خلالها أن يوظف عنصرى الخيال الأسطورى والخرافة ، وقد يجد مثل هذا التصرف قبولاً عند أصحاب الأدب وخاصة الشعراء الذين يزعمون أن لكل شاعر شيطاناً يلهمه الشعر.

وقد نفذ الكاتب من خلال هذه الأسطورة إلى استبطان نفس فؤاد الموغلة فى الحيرة والقلق ، فكشف عن لوعة وهيام داخلى فى نفس فؤاد من جراء تعلقه بحبيبته إحسان ، وكشف أيضا عن نفس مرهفة شفافة تستطيع أن تحول الأشياء المعنوية والحسية إلى أنغام موسيقية وقصائد شعرية ، وإلى مقدرة فائقة فى التعمق والانسجام الكلى مع الحدث بكل أبعاده ومتناقضاته ، ولم يترك الكاتب مسألة الأسطورة متروكة على عواهنها بل عمد إلى حسمها وإرجاعها إلى حكم العقل ، بفضل ما كان يفكر فيه مراد السعيد وبفضل ما لديه من ثقافة واسعة وبصيرة نافذة ، ولعل فى الجدل الذى نشب بين

(١) رواية ليلة النهر ، على أحمد باكثير ، ص ٩٨ ، ٩٩.

فؤاد ومراد حول مسألة الإلهام ما يعكس آراء الكاتب نفسه فى عملية الإبداع والإلهام الشعرى والموسيقى ، حينما أخضع مراد هذه الظواهر إلى قوانين علم النفس الحديث . يقول الكاتب فى هذه المسألة على لسان مراد السعيد "خفض عليك يا فؤاد. إنك مخطئ إن ظننت أنى أنكر وجود هذا الشاعر بعد ما سمعت من شعره هاتين القصيدتين الرائعتين . ولست من ضيق العقل بحيث أعتقد أن العلم البشرى قد أحاط بحقائق الوجود وأن فى وسعه أن يفسر مشكلاته . إن هذا العلم لا يزال إلى اليوم عاجزا عن فهم كثير من الظواهر الطبيعية فى ظنك بشئون ما وراء الطبيعية " (١) .

وتستمر شخصية فؤاد المرهفة التى تتأثر بكل شئ حولها ، تستمر فى هذا البعد التأثيرى الذى يعكس إبداعا أدبيا وموسيقيا كلما زاد ذلك التأثر، فحينما يكون مع حبيبته فى نزهه ينشط خياله وإبداعه وحينما تبعد عنه ويحرم منها يشتد ذلك النشاط ، فيكون الإبداع حسب الحالة النفسية المتعلقة بالفرح والسرور ، ويلاحظ هنا أن إحسان التى تمثل الحبيبة ، يرتبط دورها وعلاقتها بفؤاد بالناحية الإبداعية والفنية فحضورها الروائى وبعدها يشكلان عاملين أساسيين فى مسألة الإلهام لدى فؤاد ، وقد وفق الكاتب حينما أطلق على روايته " **ليلة النهر** "حيث ارتبطت أحداث هذه الليلة بحقيقة الشخصية وبإحسان أيضاً ، فقد كان الحبيبان فى نزهة نهرية فى قارب صغير، يمرحان على صفحة الماء كأجمل ما يكون الأحبة ، وقد عزف فؤاد لحناً موسيقياً سمع على أثره شعراً يجرى على نسق اللحن ، فاجتمعت فى هذه الليلة بأحداثها كل مفردات الشخصية الإبداعية فى فؤاد ، حيث لقاء الحبيبة والجو الرومانسى الحالم ، والإبداع والتألق فيه .

---

(١) رواية ليلة النهر ص ٩٦

وهذا التصرف يفسر حقيقة أن شخصية فؤاد من الشخصيات الفنية التى تؤثر فيها المشاهد التعبيرية والمواقف العاطفية .

وتنتهى أحداث الرواية بفشل فؤاد فى الفوز بحبيبته إحسان وزواجها بآخر، وأثر ذلك على كل منهما، فقد فقدت إحسان عقلها وانتهى بها الحال فى مستشفى الأمراض العقلية، ثم مرض فؤاد وموته .

ومن الشخصيات الأخرى والهامة فى الرواية شخصية " **مراد السعيد** " وتعد من الشخصيات الثابتة على موقف متميز دائماً فهى شخصية تجمع بين العلم والثقافة وبين الخير والفضيلة ، وقد كان له أكثر الفضل فى تقدم الشخصية الرئيسية فنياً بسبب مساعداته المستمرة ، وبسبب تشجيعه له دائماً ، ومواقفه الإيجابية ، فكان الأستاذ والصديق والصاحب ، ساعد فى ذلك اتفاق الشخصيتين فى الهدف وهو البحث عن معالى الأمور ، واتفاقهم أيضاً فى الميول الفطرية والاتجاه نحو الإبداع الموسيقى والأدبى بشكل عام . وقد وفق الكاتب فى توضيح دور مراد فى حياة فؤاد ووضعه فى الرواية كشخصية رئيسية ذات أبعاد متعددة تتصل فى مجموعها بالشخصية الأساسية فى الرواية .

الفصل الثانى

أبرز أنواع الشخصية المحورية

عند نجيب كيلانى

يقدم **نجيب كيلانى** ثلاث روايات ، تتحدث عن تاريخ الدعوة الإسلامية فى مهدها الأول ، ويطرح فى هذه الروايات مجموعة من الشخصيات ، التى عاصرت الحدث وحملت على أكتافها عبئاً كبيراً فى سبيل إقامة دولة إسلامية قوامها العدل والمساواة وعبادة الله الواحد القهار لا شريك له ، وهذه الروايات هى :

١ - رواية نور الله (الجزء الأول)

٢- رواية نور الله (الجزء الثانى)

٣- رواية قاتل حمزة

ويقدم روايته الأولى (نور الله) بالآية القرآنية .

" لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ "(١) .

وتكشف هذه الآية عن ضراوة العداء الذى لاقته الدعوة الإسلامية من قبل اليهود والمشركين وتكشف كذلك عن الشخصيات التى يدور حولها الموضوع الروائى ، والمتمثلة فى زعماء اليهود وزعماء المشركين وأتباعهما ، كذلك تشير الآية الكريمة بصفتها المدخل الرئيسى للرواية إلى بعض التضحيات الكبيرة التى قدمها المسلمون الأوائل فى سبيل نصرة الإسلام وإعلاء كلمة الحق ، وفى ظل هذا البيان القرآنى المحدد الملامح ، يصور

---

(١) سورة المائدة ، الآية (٨٢) .

الكاتب بعض الشخصيات الإيمانية فى ملحمة إسلامية بالغة ويكشف عن النوازع النفسية والإيمانية لهذه الشخصيات ، ومدى تضحياتها ووقوفها موقف القوى الذى ينافح بكل ما أوتى من عزيمة روحانية إيمانية ضد قوى الشرك والبغى .

وقد كشفت المقدمة الروائية للكاتب عن الهدف من وراء هذا العمل ، والذى يرتبط بالشخصية وكيفية بنائها والغوص فى أعماقها .

فبعد أن تحدث عن الصعوبات البالغة التى تواجه الكاتب الروائى حينما يكون موضوعه التاريخ ، خاصة التاريخ الإسلامى فى عصر النبوة ، وكيف يتعامل مع الشخصيات الصحابية وما يحيط بها من وقار وهيبة لا تقبل الشطط الروائى .

" تساءل الكاتب هل من حقه أن يخترع حواراً على لسان صحابى من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟؟ وما مدى حريته فى هذا المجال وكيف يقابل العلماء مثل هذا التصرف ؟؟ ربما يكون الأمر سهلاً بالنسبة لعصر ما بعد الخلفاء الراشدين ، أما ماعدا ذلك فالأمر يتميز بدقة خاصة وأمانة بالغة " (١) .

بعد ذلك حدد الكاتب هدفه الروائى وهو التركيز على الانعكاسات النفسية للأشخاص الذين عانوا من الاضطهاد والظلم ، وعانوا من النفى والحصار، فقال " على الرغم من أن الحدث هو العمود الفقرى لأية رواية ، إلا أننى سأحاول أن أقدم انعكاساً نفسياً للأحداث الضخمة انعكاسا يلمع على صفحات النفوس الطاهرة والشريرة والمؤمنة والكافرة .. لأن الأحداث قد يجدها القارئ فى آلاف المجلدات ، أما التوترات النفسية والقلق الخالد ، والإيمان الصامد فهى أشياء يجد الروائى الجاد فيها بغيته ، وينطلق فيها قلمه برغم تجاهل أكثر المؤرخين لها " (٢) .

---

(١) مقدمة رواية نور الله ، الجزء الأول ، ص٨ ، د/ نجيب كيلانى .
(٢) رواية نور الله ، ص ٩ .

أبرز شخصيات رواية (نور الله) الجزء الأول :

أ) شخصية رسول الله " صلى الله عليه وسلم " :

وقسم الكاتب شخصياته قسمين :

القسم الأول،يضم شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، والشخصيات الصحابية

والقسم الثاني، يضم الشخصيات الثانوية المنافقة والموضوعة من خيال الكاتب .

القسم الأول :وأول هذه الشخصيات : شخصية الرسول الكريم : محمد بن عبد الله **" صلى الله عليه وسلم"** وقد شرف الدكتور نجيب كيلانى بتحليل عدة مواقف مستمدة من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فى روايته (**نور الله**) ، دارت حول الحديث عن صفاته صلى الله عليه وسلم ، وأثره فى نفوس أصحابه وعلاقته بهم وحبه إياهم ، كذلك تناول الجوانب المضيئة فى حياة الرسول والتى كان لها تأثيرها المباشر على الدعوة الإسلامية من ذلك الشورى وعدم الاستئثار بالرأى ، وحسن القيادة والتواجد دائماً فى مقدمة الصفوف عند الحرب ، أيضاً قدم الكاتب الجانب السياسى فى حياة الرسول مستخلصاً إياه من بعض المواقف السياسية التى تعكس بصيرة ورؤية نافذة للأمور، **وأخيراً** تناول الكاتب مسألة الاعتماد على الله والأخذ بالأسباب وعدم التواكل .

واعتمد الكاتب فى ذلك على تعداد الآخرين لصفات الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يعتمد على أسلوب الخطاب المباشر إلا قليلاً ، وقد وضح من ذلك تهيب الكاتب الشديد فى المعاملة مع شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلم يقحم نفسه فى حوار مصنوع ولم يلجأ إلى أساليب فنية بغية استخلاص أفكار ومضامين روائية يقدم بها الشخصية كذلك لم يعتمد على الحوارات الداخلية أو التركيز على الجانب النفسى أو الوصف الجسمانى .

ومن المواقف التي تحدث فيها الكاتب عن بعض صفات الرسول " **صلى الله عليه وسلم** " ما جاء على لسان أبو عبد الله أحد المهاجرين إلى الحبشة يقول واصفاً الرسول " **صلى الله عليه وسلم** " وأخلاقه – فى حوار مع زوجته أم عبد الله " ومحمد يا أم عبد الله رجل طيب – شريف – صادق – ليس فى يديه سوط ولا يسوق الناس بالقهر والإذلال " (١).

وفى موقف آخر تقول زوجته أم عبد الله :

إن قريشاً لا تفكر فيما تفكر فيه أنت ، ومكة تحكمها العصبيات ، وتتوزع السلطات المختلفة بين رؤوسها ، ولهذا فهم يريدون أن يبقى كل شئ على حاله ، إن الجديد فى هذه البلاد يهولهم ، ويثير الذعر فى قلوبهم .. ومحمد يسفه آلهتهم ، ويحارب تقاليدهم وتسلطهم ، ويحترم العبيد ، ويعلى من شأن الفقراء ، ولا يقيس الناس بحسب أو نسب مقياس التفاضل الوحيد لديه هو التقوى .. فأين إذن المجد العريق ، وأين كبار الشعراء والحكماء العرب ؟

إن كلمات محمد برغم بساطتها وقوة إقناعها أمر ضخم مهول إنها هدم للقديم والإعداد لإقامة بناء جديد للحياة ولطبقات الناس ، ومعاييرهم الخلقية .. " (٢).

ويقول عمر بن الخطاب قبل إسلامه عن **محمد صلى الله عليه وسلم**، معبراً عن حيرته فى هذا الأمر : " لقد سحت فى شتى أنحاء الأرض يا امرأة .. قابلت الملوك والحكماء .. وناقشت النصارى والمجوس ، وسمعت الكثير من الرهبان والكهان وأحبار اليهود .. كلهم كانوا يعيشون فى عالم ضيق مغلق أعمى .. برغم صدقهم فى بعض

(١) رواية نور الله ، حـ١ ، ص١٧ ، د/ نجيب كيلانى .
(٢) حوار طويل بين رجل من المهاجرين وزوجته ، ص١٧ : ٢٥ .

ما يقولون .. لكن محمداً شئ آخر.. أرى فى عينيه صفاء الأطهار.. وعلى وجهه عزيمة الرجال الأحرار وعلى ملامحه السمح نور الله " (١) .

وما رواه على لسان عبد الله بن عبد الله بن أبى حينما ذهب إلى رسول الله **صلى الله عليه وسلم** ، يستأذنه فى قتل أبيه بيده بعد أن نزل قرآن يفضح أمره ونفاقه ، فلم يوافقه الرسول ولم يخذله ولم يجحد له حقاً ولم يشأ أن يفضحه فى أبيه (٢)،وفى ذلك إشارة إلى الحلم والرأفة والرحمة . وكان جواب الرسول فى ذلك :

" إنا لا نقتله ، بل نترفق به ، ونحسن صحبته ما بقى معنا .. "

حيث هز عبد الله رأسه وأخذ يتمتم : " إنك رسول الله حقاً .. إن حلمك وسع الدينا ولم يقصر دون العصاة المذنبين ، الذين أساءوا وأفسدوا فى الأرض ... والله ما أحب إلينا أحد فى الدنيا منك ، يا رسول الله .." (٣) .

ومن المواقف السياسية التى عرضها الكاتب للرسول (**صلى الله عليه وسلم**) والتى يبدو فيها أيضاً مقدراً لآراء أصحابه وهيبتهم ، موقفه **صلى الله عليه وسلم** حينما أشار عليه أحد الصحابة بالتنازل عن ثلث ثمار المدينة لقبيلة غطفان حتى ترحل ولا تشترك فى غزوة الأحزاب ، وقد وافق الرسول فى بداية الأمر حتى جاءه سعد بن معاذ سيد الأوس وقال **" لن نسلم لغطفان بشيء على الرغم منا ، لكأننا نخاف حريهم "** أو لسنا على الحق ؟؟ أو ليس عدونا على الباطل ؟؟ ، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون فى أن يأكلوا منا ثمرة إلا قرىً أو بيعاً

---

(١) رواية نور الله ، حـ١، ص ٢٩ : ٣٧.
(٢) رواية نور الله ، حـ١، ص٢٣٧ .
(٣) رواية نول الله ، حـ١ ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له ، وأعزنا بك وبه نقطعهم أموالنا ؟ والله مالنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف يحكم الله بيننا وبينهم "(١).

وقد سعد الرسول بموقف الرجال الحازم ، ولم يشأ أن يفرض رأى أرتأه من قبل وظل الكاتب يذكر مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى كل مناسبة تمر ، يؤكد من خلالها على صلابته وتماسكه فى أصعب الأوقات وأشد الأزمات ، وكيف حول الناس بحسن قيادته وسيرته من حال إلى حال ، من غلظة فى القلب وجفاء فى العاطفة إلى أناس متراحمين يعطف غنيهم على فقيرهم ، ويبر كبيرهم صغيرهم . وكيف كان صلى الله عليه وسلم يتقدم صفوف المقاتلين يحفزهم ويشاركهم حتى فى أبسط الأعمال .

ب) عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

ذكر الكاتب أنه سيحاول تقديم المنعكسات النفسية على الأشخاص إزاء الأحداث والملابسات التى تصدم بها ، ليكشف الحقائق الإيمانية والتصورات الأخلاقية التى تبدو من أول وهلة واضحة ، خاصة على من أسلم قلبه وفكره لله ، ومن هذا المفهوم النفسى يقدم الكاتب شخصية عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد أعطاه نصيباً كبيراً من الاهتمام والتركيز ، فعكف على إيضاح نفسه وما يعتمل فيها من حيرة وقلق حاد تجاه ما يحدث فى مكة إبان ظهور الدعوة الإسلامية .

فقدم الكاتب عمراً فى الجاهلية وانطباعاته الأولى تجاه الإسلام والرسول **صلى الله عليه وسلم** ، ولم يكتف الكاتب بوصف الشخصية من الخارج ومكانتها بين القوم بل اتجه نحو التغلغل داخل طيات النفس العمرية عن طريق الأحاديث النفسية ، التى كشفت حيرته وشتاته الفكرى المستمر والمتعلق بواقعه ومحاولة الخروج من هذه الدائرة

---

(١) رواية نور الله ، جـ١ ، ص٣٠١ ، ٣٠٢ ، د/ نجيب كيلانى .

الضيقة إلى آفاق أرحب وعالم فسيح تقر فيه عينه وتستقر نفسه ، وهنا تبدو مهارة الكاتب حينما جعل عمراً يتجه بتفكيره إلى الأمور الجديدة التى يطرحها الإسلام مثل الوحدانية ، والمساواة وما أسباب نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ .

وقد جعل الكاتب الشخصية تستعين بماضيها وحاضرها وخبرتها فى الحياة فى الفصل بين هذه الأمور ، إلى أن استقرت وأبصرت طريق الخير واهتدت إلى نور الله المتمثل فى الإسلام ، يقول الكاتب على لسان عمر واصفاً الحالة النفسية والحيرة وعدم القدرة على حسم الأمور " كنت دائماً أحسم الأمور بضربة قوية نهائية ، أو برأي ثاقب لا يهتز أو يتأثر بالمعارضة ، فماذا جرى لى ؟؟

هكذا قال عمر بن الخطاب يحدث نفسه ، وهو يسير فى الطريق وحيداً ، يعتصره الضيق ، ويمزقه الألم إن أمر محمد يشغل باله وينغص فكره ، ويملأ تفكيره بالمتناقضات التى لا نهاية لها " (١) .

" آه يا عمر .. الله واحد .. يالها من كلمة !! ليس لدى محمد دليل مقنع يمكن أن يهدم هذه الدعوة .. الله واحد .. وهل فى الإمكان أن أقول : إن الله اثنان أو ثلاثة أو أربعة ؟؟ وكيف ؟ وهل تستقيم دعواى ؟ ومحمد يقول : إن العبيد أخوة لنا .. يضرب عرض الحائط بكل المواضعات والنظم القائمة .. فبلال مثل أبى بكر ومثلى أنا .. ومثل أبى جهل أو أبى لهب وأبى سفيان .. تالله لو انطبقت الأرض على السماء لما جاز هذا القول .. إن هذا التصور فساد وأى فساد .. مستحيل أن أقبل هذه الافتراضات الغريبة " (٢) .

---

(١) رواية ثور الله ، حـ١ ، ص٢٦ ، د/ نجيب كيلانى .
(٢) رواية نور الله ، ص٨٨ .

وفى حوار بينه وبين المرأة " الغانية " التى تمثل مرحلة الجاهلية فى حياة عمر رضى الله عنه أخذ فى عرض أفكاره وهواجسه و تساؤلاته عله يظفر من الغانية بخبر أو استفسار، يقول :

- ❖ لماذا أرسل الله محمداً بالذات ؟؟
- ❖ هتفت وهى تلتقط أنفاسها مهزومة مصدومة .
- ❖ علم هذا عند محمد أو عند من أرسله .
- ❖ لم لم أبعث نبياً وأنا فارس قريش وسفيرها مثلاً ؟؟ (١) .

ويستمر هذا القلق فى ازدياد ، ولم يكن له من مخرج إلا أن يقتل محمداً حتى يستريح من هذا العناء الفكرى ، فلقد فرق مد أمر الناس ، ويوشك أن يحطم كيان مكة والعرب .. لسوف أقتله .. فإن كان نبياً فليحمه الله منى .. ابن الخطاب يقتل نبياً هذا نبأ كالرعد .. .. " (٢) .

وتشتد ثورة عمر عندما يلتقى فى طريقه بنعيم بن عبد الله قائلاً له " ألا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم .." فقد أسلمت أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد وهنا تتحول ثورته وغضبه إلى أخته وزوجها فإذا به يقصد بيت أخته ليريق دمها ودم زوجها ، فيتسلل إلى قلبه وكيانه نور الله حينما سمع آيات القرآن الكريم تتلى وأطرق يسمع قول الله تعالى " وعنت الوجوه للحى القيوم ، وقد خاب من حمل ظلماً ، ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً .. .. " (٣) ، وشعر عمر أثنائها بانحسار ثورته فهاهى كلمات الله تطرق باب قلبه فى رفق ، لكأنما هذه الكلمات لحن سماوى مؤثر حرين يسيل

---

(١) السابق ، ص ٣١ .
(٢) نور الله ، جـ١ ، ص٣٨ .
(٣) الآية رقم ١١١ من سورة طه .

الدموع .. الدموع؟؟ لا .. وسقط السيف من يده ، فأسرع بتناوله ، خيل إليه أن عضلاته المتشنجة تتراخى لكنه يقاوم .. هذا سحر .. الويل لك ياعمر!! كيف تضعف ؟؟ ستكون أضحوكة الناس فى مكة ، ومضغة فى الأفواه .." (١)

وقد أسهب الكاتب كثيراً فى تجسيد هذا المشهد الإيمانى الرائع الملئ بالانعكاسات النفسية العميقة ، والتى نتج عنها إسلام عمر بن الخطاب ، ونطقه الشهادتين وتحقيق دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حينما قال " اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب " (٢) .

وينتقل الكاتب بالشخصية إلى آفاق أخرى أوسع فكراً وتطلعاً إلى مستقبل كبير ملئ بالآمال ، وهذه المرحلة تبدو فيها الشخصية صاحبة فكر مستنير وفلسفة عميقة تحاول فهم الحقائق وتحليلها واستخلاص النتائج الإيجابية الدقيقة ، فنرى الشخصية تقارن بين واقعها وماضيها بين عقيدتها الإسلامية وبين العقائد الأخرى ، ولا تنس الشخصية وهى فى خضم هذا المعترك النفسى ، أن تهتم بالواقع الكبير ، وتشعر بإحساس الجماعة وتناقش القضايا المتعلقة بمصير الأمة وهى فى مراحلها الأولى ، ويستعين الكاتب فى ذلك بتاريخ الشخصية واستشرافها للمستقبل المتعلق بالأمور الحسية والمعنوية ، من ذلك رأى عمر فى الخمر قبل أن ينزل قرآناً يحرم ذلك (٣) .

يقول عمر فى حوار مع ابنته حفصة – رضى الله عنهما – : " أجل الشراب .. آه فهمت ، تقصدين الخمر .. إنها تثير حيرتى .. يقول القرآن إن إثمها أكبر من نفعها .. وهذا لا يشفى غليلى .. إنها تذهب العقل ، وتغلب جانب الحيوانية على جانب الإنسانية فى

---

(١) نور الله ، حـ١، ص ٤٤ .
(٢) نور الله ، ص٤٨، د/ نجيب كيلانى .
(٣) رواية نور الله ، حـ١، ص٥٠، د/ نجيب كيلانى .

الآدمى .. ولهذا فأنا أكرهها ، كتمت الرسول عنها فأشار إلى أن انتظر ، هذا ما فهمته وإنى أعتقد أن الله لا شك سوف ينزل فيها حكماً حاسماً فى يوم من الأيام .. أى حفصة يا ابنتى الغالية إن أباك قد جرب الكثير من أحداث الدنيا ، وسافرت كثيراً وقابلت عديداً من رجال الحكم والفكر والدين والمال ، لم أجد أعظم ولا أوضح من كلمات محمد .. وسيكون لهذا الدين يا ابنتى شأن أى شأن ، إننى أتطلع بعين الغيب إلى المستقبل فيخيل إلى أنى أرى الرايات تخفق فى أرجاء الدنيا معلنة مولد الحرية وكرامة الإنسان .. وتحطيم الأصنام بكل صورها وألوانها ومحمد يحدثنا عن الأديان القديمة وكأنه عاشها .. تاريخها .. تطوراتها.. العبث الذى داخلها .. وكيف أن الإسلام هو امتدادها الطبيعى ، وهو الحلقة الأخيرة الكاملة لها .. إنه الصورة المثلى التى ارتضاها الله لعباده ، والعقيدة الكاملة التى تناسب فكر الإنسان وطبيعته وتكوينه " (١) ، ويسير الكاتب بالشخصية عبر المنعطفات التى مرت بها الدعوة الإسلامية من انتصار وأزمات وأحلام ، وتحديات تواجه القلة القليلة التى أسلمت وجهها لله ، وصور الكاتب المواقف الخالدة فى حياة الشخصية لتكون نبراساً يضئ جوانب النفس العمرية ، وما تنطوى عليه من خير وشجاعة وقوة إيمانية هائلة من ذلك موقفه من الهجرة وإصراره على الهجرة علانية وقوله :

لن أهاجر خفية .. لكم يلذ لى أن أنتضى سفيى ، وأصرخ فى أرجاء قريش ، وأعلن على الملأ إنى مهاجر ومن أراد أن تثكله أمه فليأتنى خلف ذلك الوادى " (٢) .

فقد علم عمر أن هجرته مع الرسول سوف تترك دوياً فى أرجاء مكة ، ولسوف تشد إلى الإسلام نفوساً ، وستزيل الضعف من قلوب بعض المستضعفين .. " إن إعلانى عن هجرتى يعنى التحريض على متابعتى .. أتفهمين ؟" (٣) .

---

(١) رواية نور الله ، ص٥٠ — ٥١ .
(٢) نور الله ، حـ١ ، ص٥٥ ، د/ نجيب كيلانى
(٣) رواية " نور الله " حـ١ ، د/ مجيب كيلانى ، ص ٥٧

وغير ذلك من المواقف العظيمة فى حياة الشخصية العمرية ، التى حاول الكاتب تفسيرها وتحليلها مثل فلسفة عمر الحربية ونظرته لحال المسلمين وقلتهم مقابل كثرة المشركين ، (١) وفرحته الشديدة باندفاع المسلمين خلف رسول الله مستبشرين بنصر الله وموقفه يوم أحد ، حينما انكسر المسلمين بعد تفوقهم فى بداية المعركة ، بسبب تخلى الرماة عن مواقعهم طلباً للغنائم ، وشيوع مقتل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصدى ذلك على نفوس المسلمين وخاصة عمر ، وقد عبر الكاتب عن هذا الموقف المأساوي بأحاديث نفسية جسدت مدى المعاناة التى تتملك نفس عمر- يقول الكاتب :

وسمع عمر بن الخطاب أحد المشركين يصيح بأعلى صوته :

- ❖ مرحى .. مرحى .. لقد قتلت محمداً .. "
- ❖ دارت الأرض بعمر ، وأظلمت الدنيا فى عينيه يا إله السماوات والأرض !! أحقاً مات نبيك وحبيبك ؟؟ وكيف يحدث ذلك ؟ أيهزم المؤمنون ، وينتصر المشركون ؟؟ أحقاً مات محمد ؟؟

وألقى عمر بجسده المنهك الملئ بالرضوض والسحجات ، وظل جامداً ذاهلاً ، ما معنى أن يحدث ذلك ؟؟ كيف يصدق ؟؟ وماذا يحدث للإسلام والمسلمين ؟ والمستقبل ؟ وكلمات الله إلى الناس تلك الكلمات الموحاة إلى نبى الله " (٢).

وهذه المواقف وغيرها عبرت فى مضمونها عن أن الكاتب قد تعمق الشخصية بكل أبعادها النفسية والخلقية فى مراحلها المختلفة ، مما ساعد على إجلاء الجوانب الاجتماعية والسياسية والدينية فى الشخصية العمرية .

---

(١) السابق ، ص ٩٢،٩١،٩٠.
(٢) السابق ، ص ١٨٠-١٨١-١٨٢ .

٢- أبرز شخصيات رواية (نور الله) الجزء الثانى :

أ) الشخصية الحربية : (خالد بن الوليد) :

قدم الكاتب خالد بن الوليد فى الجزء الثانى من روايته – نور الله – وقد أظهر معه تعاطفاً من نوع خاص ، حيث عكف على تعمق ذاته وداخله ، فأظهر الجانب المعنوى المتصارع فى نفسه إزاء الأحداث ، فالرسول صلى الله عليه وسلم ، يبدو فى نظر خالد قائداً يحسن القيادة ويحافظ على رجاله ، ورغم أن خالداً فارس قريش الأول وقائدهم يوم أحد ومن ذوى الرأى بين رجالات مكة ، إلا أن الكاتب لم يظهره فى صورة المغالى فى عدائه للمسلمين ، بل جعله فى كثير من المواقف يأخذ جانب المحايدة وإن لم يعلن ذلك صراحة وقد كان خالد فى أغلب مواقف قريش يعلن عن رأى يندد فيه بسياسة قومه ، ويشيد بسياسة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

وقد عول الكاتب فى هذه الشخصية على الجانب العقلى ، الذى يفكر فى كل شئ بمنطقية تتناسب مع قدراته العقلية ، فلا ينساق وراء الآخرين فى عدائهم الأعمى للمسلمين ، من هذه المواقف موقفه من أبى بصير الذى اعتنق الإسلام وفر إلى المدينة هارباً من طغيان قريش وفى ذلك خرق لبنود صلح الحديبية ، وقد رده الرسول حينما طلبته قريش ، واستطاع أن يهرب من وفد قريش ويقطع طريق تجارتها ويهدد أمنها .

وكان موقف خالد أن تتنازل قريش عن الشرط الخاص بعودة من يذهب إلى محمد من أهل مكة معلناً إسلامه ، يقول خالد فى حوار دار بينه وبين عكرمة وأبى سفيان وهند بنت عتبة :

" بقى العقل يا عكرمة ، ندبر به أمورنا لو أردنا ، أنا لا أدير المعارك بكبريائى وعاطفتى ، لو فعلت ذلك لحاقت بى الهزائم ، والعقل عصمة يا عكرمة .. .. وأؤكد لك أنك

لو فتحت الطريق أمام الذين يرغبون فى اللحاق بمحمد لما ذهب إليه غير عدد قليل ، إن الأسوار التى نقيمها حول الفكر ، والسيوف التى نشهرها فى وجه الراغبين فى التصرف بحرية ، تزيد من عدد الهاربين والمتمردين .. صدقنى ياعكرمة ".

هز عكرمة رأسه فى أسى وقال :

- ❖ إن رأيك يا خالد جدير بالنظر والتمحيص .. فلنذهب إلى أبى سفيان .. "
- ❖ تنحنح خالد وقال :
- ❖ أتوافقون على التنازل عن شرط من شروط الاتفاقية المعقودة بيننا وبين محمد فى الحديبية
- ❖ أى شرط ؟؟
- ❖ نقول لمحمد إننا لا نريد أن يرد إلينا الهاربين دون موافقة سادتهم فليقبلهم وليقبل أبا بصير ورجاله .. عندئذ يظل طريق التجارة إلى الشام مفتوحاً .. وعندئذ نستطيع أن نحاسب محمداً إذا اعتدى أحد رجاله على الطريق " (١) .
- ❖ كذلك صور الكاتب المرحلة التى سبقت إسلامه تصويراً يبدو فيه جانب الصراع متغلباً على جوانب الاستسلام للحالة التى عليها .

يقول الكاتب مصوراً تصارع الأفكار فى نفس خالد " حاربت محمداً دون أن أجهد فكرى فيما وراء دعوته ، كثيراً ما كنت أمارس الحرب كواجب أو كصناعة برعت فيها لكن الأحداث شدتنى إلى معمعات أخر .. حيث لا سيف ولا مداورة ، إننى أخوض الآن معركة فكرية .. لم يتبلور اتجاهى بعد لكنى أتساءل ولى الحق ، وأناقشك وأناقش

---

(١) رواية نور الله ، جـ٢، ص٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨

الآخرين .. إن الشجاعة فى خوض القتال ليست هى الشجاعة الوحيدة ياحويرث ، وهناك أيضاً شجاعة مواجهة الحقائق والتفكير النزيه إنها أعلى مراتب الشجاعة حسبما اعتقد " (١) .

وقد تجلى هذا الصراع الفكرى فى الشخصية المحاربة **"خالد بن الوليد"** حينما سمع ورأى الصورة الحقيقية للمسلمين فى مكة أثناء زيارتهم لبيت الله ، وإعجابه الشديد بالروح الإيمانية التى تغمر قلوبهم ، والتى كانت سببا فى إعلانه الحب والتقدير لمحمد والمسلمين بل واعتناقه الإسلام ، وقد جسد الكاتب هذه المرحلة فى حياة خالد تجسيدا يكشف عن براعة فى التمهيد للحدث الكبير الذى سيهز مكة ورجالها ، وقناعة خالد الكبير فيما أقدم عليه ، ومدى احتقاره لماضية وما أنفقه من عداء للمسلمين وكرهه ليوم أحد يوم نال جيش الكفر من المسلمين على يديه.

يقول الكاتب على لسان خالد :

" لقد رحلوا .. وتركونى وحدى .. تسمرت قدماى فى الأرض القذرة .. وتيبست أعضائى .. حاولت أن أتحرك فلم أستطع .. حاولت أن أصرخ بكلمة وداع فتساقطت حروف الكلمات مبعثرة ساخرة بلامعنى .. الوهم اللعين سيطر على قواى فشلنى .. لأنى .. لأنى خائف" (٢) .

ب) الشخصية الحائرة (أبوسفيان بن حرب):

قدم الكاتب فى روايته نور الله متزعماً حركة العداء الكبير للرسول والمسلمين ، ولم يكن تعامل الكاتب مع هذه الشخصية من منطلق التحليل النفسى مثل بقية الأشخاص الذين تعمقهم من نواحى مختلفة ، وكان سبيل الكاتب فى ذلك أنه يجمع دائماً مكة

---

(١) السابق ، ص ٢٧١ - ٢٧٥ .
(٢) رواية نور الله حـ٢ ص ٣١٣-٣١٤.

ورجالها وأحداثها بجانب هذه الشخصية ، ولم يذكر الكاتب فى مواقفه مع أبى سفيان تحليلاً واحداً لعدائه ، بل دائماً يجعل أبا سفيان فى منطقة الحائر الذى يود أن يكون مجاوراً لمحمد ولكن كبرياءه وموقفه من أهل مكة يقفان حاجزاً أمامه ، والموقف الكبير والفريد الذى تعمق فيه الكاتب هذه الشخصية هو موقف إيمانها واعترافها بوحدانية الله ونبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، يقول الكاتب واصفاً يثرب من وجهة نظر أبى سفيان حينما ذهب يسترضى رسول الله أثر نقض مكة وأتباعها لصلح الحديبية مع الرسول :

" ودخل أبو سفيان يثرب خائفاً يترقب .. آه .. إن لهذه المدينة صمتاً عجيباً إننى أرى فى الشوارع قوماً هادئين ، تشع عيونهم بريقاً عجيباً ، هو مزيج من الإيمان والاطمئنان والثقة ، لا صياح ولا قلق ولا تخبط .. لكن هذا لا يعنى أنهم لا يفكرون فى حرب ، قد تنقلب سحناتهم فجأة إلى آساد غاضبة أو نمور شرسة .. " (١) .

وخاطب أبو سفيان نفسه قائلاً :

" حسناً ليحدث ما يحدث ليصبح عاليها سافلها ، ولتنطلق همجية التدمير فى كل الأنحاء .. أجل فقد سقطت .. " وشعر برغبة فى البكاء ، لكنه تمالك أعصابه واستطرد : لتقل هند ما شاءت .. وليسخر ابن أبى جهل .. ولينطلق الشامتون فى شوارع مكة وبيوتها بأفحش القول .. فما عدت أكترث لشئ .. " (٢) .

وفى لقائه برسول الله صلى الله عليه وسلم :

فلما كان الصباح ، جئ بأبى سفيان إلى الرسول .. الموت ولا هذا .. هاهم كبار المهاجرين والأنصار يسددون إلى أبي سفيان نظرات مستطلعة .. لكنه يرى بعقله المكدود

---

(١) السابق ، ص ٣٦٠ .

(٢) رواية نور الله ، حـ٢ ، ص٣٦٥-٣٦٦ ، د/ نجيب كيلانى .

المرتبك السخرية والاحتقار، فيثور الدم فى رأسه ، لكنه يكظم غيظه ، ويرفع إلى الرسول عينين محتقنتين ..

فيبتسم الرسول ويقول :

- ❖ ويحك يا أ با سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟؟ !
- ❖ فيرد أبو سفيان مرتجفاً :
- ❖ بأبى أنت وأمى !! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئاً بعد .. "
- ❖ قال النبي:
- ❖ ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟
- ❖ بأبى وأمى !! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك !! أما والله هذه فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً .. " وظلت ابتسامة الرسول مضيئة ، تعيد الهدوء إلى أصحابه الذين تغيرت نظراتهم ، واحتقنت وجوههم وحرك الضيق ما سكن من مشاعرهم ومال العباس على أبى سفيان وقال فى حدة :
- ❖ بقية من كبرياء تمنعك من أن تنطق بكلمة الحق ، والله إنى لأعلم أنك أدرى أهل مكة بالحق ، وأفهمهم للصالح من الطالح ، لكن عنجهيتك تزين لك العناد ، وتأخذ بيدك إلى موارد التهلكة والفساد ، ماذا تنقم على محمد ؟؟ أفى أخلاقه عوج أم فى مبادئه زيف ؟؟ أفق لنفسك أيها الرجل وانتصر لكلمات الله .. وامح ما فات من تاريخك الأسود .
- ❖ طأطأ أبو سفيان رأسه فى خجل ، فقد تبللت عيناه بقطرة دمع ، وتمتم :
- ❖ وأشهد أنك يا محمد رسول الله .. "

❖ هتف العباس فى فرح :

❖ فلتذهب إلى مكة ، ولتفتح عيون الناس على الحقيقة ، إن أنت فعلت ذلك فقد فتحت قلبك حقاً لنور الله .. "

❖ ثم مال العباس على رسول الله قائلاً :

❖ يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً .. "

❖ قال الرسول فى رضى :

❖ نعم .. من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .. "

❖ ولم يهرول أبو سفيان إلى مكة إلا بعد أن وقف عند مدخلها ليرى قوات المسلمين عندئذ قال وقد رأى الكتيبة الخضراء التى يتقدمها الرسول :

❖ يا عباس ، ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً .. "

ثم انطلق إلى قومه يصيح بأعلى صوته :

❖ يا معشر قريش !! هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .. "(١) .

---

(١) نور الله ، جـ٢، ص٣٧٥ : ٣٨٢ .

القسم الثانى :

أ) الشخصية المنافقة (عبد الله بن أبى) :

ويمثلها فى رواية نور الله عبد الله بن أبى ، رأس المنافقين ، وتعد هذه الشخصية من الشخصيات التى اهتم بها الكاتب ووظفها حسب مقتضيات العمل الروائى ، فقد جسد من خلالها الصراع النفسى والحقد الدفين على الإسلام والمسلمين ، وكشف من خلال ذلك الصراع عن نفس ملتهبة متحسرة على ماضيها رافضة لواقعها فمنذ الوهلة الأولى ينظر للرسول صلى الله عليه وسلم على أنه منافس له فى زعامة المدينة .

وقد تعامل الكاتب مع هذه الشخصية داخلياً وخارجياً . فمن الداخل اجتهد فى كشف نواياها السيئة وكشف ضيقها بالمسلمين ، وحقدها كلما تزايد المسلمون وازدادت قوتهم ، وقد وفق الكاتب كثيراً فى فضح هذه الشخصية عن طريق الحوار الداخلى والأحاديث النفسية إزاء كل انتصار يحققه المسلمون .

وخارجياً فقد أحصى الكاتب الوقائع التاريخية التى شاركت فيها هذه الشخصية من ذلك موقفه المساند ليهود بنى قينقاع ، حينما هموا بالاعتداء على المرأة المسلمة ، وقتلوا رجلاً مسلماً حاول الدفاع عنها ، فقد ذهب إلى رسول الله قائلاً :

❖ يا محمد أحسن فى موالى .. "

فلم يتكلم النبى ، فعاد بن أبى يقول :

❖ يا محمد أحسن فى موالى .. " (١) .

وابن أبى يجادل الرسول فى أمر هؤلاء ، ويريد أن يظفر لهم بالعفو ، وقد ضاق به الرسول وغضب من موقفه هذا ، ثم موقفه يوم أحد حينما رجع ومعه ثلث الجيش لأن

---

(١) رواية نور الله ، جـ١ ، د/ نجيب كيلانى ، ص ١٢٤ .

رسول الله لم يقبل شرطه وهو قبول اليهود محاربين فى صفوف المسلمين ، وكان موقف الرسول أن يسلموا أولاً وإلا فليعودوا من حيث أتوا ، فعادوا وعاد معهم ابن أبى فرحاً باشا " (١) .

وكذلك حينما حاول أن يفسد ما بين الأنصار والمهاجرين بعد غزوة بنى المصطلق فقد استغل حادثة وقعت عند طلب الماء بين أجير عمر بن الخطاب وآخر من الأنصار وقال : " لقد كاثرنا المهاجرون فى ديارنا ، والله ما أمرنا وإياهم إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل" (٢) ، وصوره الكاتب فى بيته مع زوجته يفصح عن داخله وأحزانه وما أصابه من ضياع بسبب فقده التاج ، وما ترتب على ذلك من حقد وكراهية للرسول والمسلمين . يقول مخاطباً زوجته :

- ❖ أنت تعرفين أننى صاحب الحق فى التاج .
- ❖ أنت لم تحدد موقفك من الإسلام تماماً .
- ❖ أنا لا أتحدث عن الإسلام ، ولكن أتحدث عن مجدى الذى ضاع .
- ❖ ليست هذه هى القضية .. القضية هى الإيمان والكفر .
- ❖ والقضية فى نظرى هل سلبتنى هذه الدعوة سلطانى أم لا .
- ❖ وفى موقف آخر تقول له زوجته :
- ❖ أنت تحسد محمداً على ما حباه الله من نجاح ؟
- ❖ هذا دأب ذوى الشأن والطموح من بنى البشر .
- ❖ لكنك وأنت تسير فى هذا الطريق الوعر ، تستبيح أشياء فى غاية الخطورة .. "

---

(١) السابق ، ص ١٦٧-١٦٨ .

(٢) رواية نور الله ، حـ١ ، د/ نجيب كيلانى ، ص ٢٣٤ .

❖ تحرض على محمد ، وتستعدى عليه الناس ، وتؤلب عليه الأعداء ، لكنك تبش في وجهه وتظهر له غير ما تبطن .. !

❖ قال وهو يبتسم في مرارة شديدة :

❖ تعنين أني منافق ؟

❖ ولما لم تجب ، قال :

❖ أنا أسميه سياسة ودراية بوسائل البلوغ لآمالي .

❖ قل ما شئت ، فليس بوسعك أن تقنعني بأن ما تفعله لايتناقض مع إسلامك (١) .

ويستمر الكاتب في الجزء الثاني من الرواية في وصفه وتجسيده للحقد والحسد عند كل موقف يتعرض له المسلمون خاصة مواقف النصر ، وقد بدا ذلك من خلال الشعور النفسي للشخصية بالكراهية والنفور من عامة الناس وانطوائها على نفسها ، وتقوقعها داخل بؤرة صغيرة ، وقد انحسر الشر داخلها .. فلم يعد هناك اليهود الذين يحرضهم ضد محمد والمسلمين ، وقد بدا تعمق الكاتب لهذه الشخصية وأطوارها واضحاً ، فمنذ الجزء الأول وهو يسجل أحقادها ومواقفها ، متمشياً مع الأحداث ، ومبدياً انفعالاتها النفسية كلما انتصر الإسلام ، واستمر الكاتب على هذا المنوال حتى جعل من المد الإسلامي الكبير حسرة وانحساراً لهذه الشخصية حتى بدت عاجزة خاوية ليس لها شأن أو قيمة ، وقدم الكاتب زوجته في صورة المرأة المسلمة الضعيفة التي لا تستطيع أن تقنع زوجها بالحقيقة فكلما حاورته في الأمر اشتد غضبه وإيذاؤه لها .. وكأن الكاتب يريد أن يظهر صورة الصراع

---

(١) السابق ، ص١٣١-١٣٢-١٣٣

الكبير بين الشخصيتين ، وهو صراع قائم على أساس الحق الذى تمثله الزوجة ، والنفاق الذى يمثله الزوج .

ب) شخصية الغانية (المرأة اليهودية) :

وهى شخصية موضوعة اجتهد الكاتب فى ابتكارها وخلقها حسب مقتضيات الفن القصصى ، ويكون لها وظيفة هامة داخل العمل ، إذ تقوم هذه الشخصية أحياناً بالكشف عن ملامح الشخصيات الأخرى ، وتساعد فى دفع الحدث وتنميته ، ومن خلالها تبدو مهارة الكاتب فى الربط بينها وبين الأشخاص الرئيسية من جهة ، وبينها وبين الأحداث من جهة أخرى ، ويمثل هذا النوع فى رواية " نور الله " شخصية اليهودية التى تنتسب إلى يهود بنى قينقاع وقد قدمها الكاتب جاهزة لأداء مهمة مرسومة ومحددة ، فهى امرأة مجربة واعية لها خبرات كبيرة بالرجال وصنوفهم ، تتمتع ببعد نظر نتيجة خبراتها المتعددة ، وكان من ذلك أن أيقنت بحدسها أن النصر لن يكون إلا للمسلمين ، فهم غير ما تعرف من الرجال فليسوا طلاب شهرة أو طلاب مجد دنيوى زائل . علمت ذلك حينما دفع بها زعماء اليهود فى طريق عمر بن الخطاب ، حتى تنال منه وتوقعه فى شباك غيها خاصة وأنه كان على صلة بها فى جاهليته ، ورغم ما أوتيت من براعة وفراسة ووسائل إغرائية قد باءت محاولاتها بالفشل فى النيل من عمر بن الخطاب .

ولم يقتصر دورها على ذلك بل تعداه إلى القيام بدور السفير لزعماء اليهود ، حتى تكون هناك ثغرة ينفذون منها لخلخلة الأمن الإسلامى والاستقرار الاجتماعى فى المدينة ولما يئست من ذلك كله وعلمت أن هؤلاء قوم لن يتركوا أنفسهم فريسة للشيطان مرة أخرى تحولت فى فكرها وأصبحت تقوم بدور الناصح والمرشد لقومها ، وهنا تبدو مهارة الكاتب فى رسم ملامح هذا التحول ، فكان حضورها دائماً مقروناً بالحق والعدل وأنه يجب على

اليهود ألا يغدروا أو ينقضوا عهداً أبرموه مع رسول الله ، ولما كان عهد اليهود دائماً الغدر والحقد والحسد كانت تقف منهم موقف الساخر المستهزئ بأفعالهم .

واليهودية شخصية الضمير الحي الذي انطفأ نوره في قلوب اليهود ، والذي ظل يصارع الحقد والكراهية ، ويحاول أن يغير من طباع القوم وما جبلوا عليه ، وقد تعامل الكاتب مع هذه الشخصية تعاملاً يكشف عن ثقة كبيرة في كيفية توظيف الشخصية الموضوعة أو الخيالية ، وقد ساعد ذلك على خلق نوع من التوتر والاضطراب في نفوس الشخصيات الأخرى ، مما أضفى على الأحداث نوعاً من التشويق لقراءة المستقبل وتوقعاته .(١)

وفي آخر مشاهد اليهود جعل الكاتب فكرها يتحول بعد أن رأت زعماء اليهود يقتلون ويطردون من ديارهم ، نتيجة غدرهم ونقضهم للعهود والمواثيق .

وكان هذا التحول نحو دعوة الرسول ورسالته السامية :

تقول اليهودية لجارتها :

- إنني يجب أن أفكر في دعوة محمد على ضوء جديد .. ألا تعتقدين أنه على حق ؟!.
- قالت المرأة في أسى وقد عادت دموعها للانهمار :
- لا أستطيع التفكير الآن ..
- لا .. لا يصح أن نترك هذا السؤال الحاسم معلقاً دون إجابة ..
- أتريدين الحقيقة ؟؟
- أجل ..

---

(١) رواية نور الله ، ورد ذكر هذه الشخصية في الفصول (٢ – ٧ – ٨ – ٩ – ٢٣ – ٣٤) .

- هذه الحقيقة نعرفها منذ زمن بعيد .. إنه رسول الله حقاً ولم نر في دعوته وسلوكه وسلوك رجاله إلا صورة صادقة لآيات الله وأحكامه وتعاليمه .
- فماذا ننتظر ؟؟
- ننتظر حتى تجف الدماء .. وينسدل الستار على المشهد الرهيب .. ثم نشهد أن لا إله إلا الله ، وأن ... " وصمتت .
- قالت اليهودية :
- وأن محمداً رسول الله .. وطأطأت المرأة رأسها قائلة :
- أجل . (١) .

٣- أبرز شخصيات رواية (قاتل حمزة) :

أ) شخصية الباحث عن الحرية (وحشي بن حرب) :

يطرح الدكتور نجيب كيلاني شخصية وحشي بن حرب في روايته قاتل حمزة ويطرح معها عدة قضايا هامة مرتبطة بتاريخ الدعوة الإسلامية ، ومرتبطة بتاريخ الشخصية ومزاجها النفسي ، ولعل أهم هذه القضايا قضية الرق والعبودية ، فالكاتب قد نفذ إلى أعماق الشخصية وأخرج كل ما كان يعتمل فيها من خلال طرحه لهذه القضية وقد كان هدفه من ذلك هو التعاطف مع هذه الشخصية ، خاصة أنها قد أسلمت فيما بعد وشاركت في بطولات إسلامية كبيرة ، كانت سبباً مباشراً في رفع المعاناة النفسية عنها وإخراجها من بؤرة الحسرة والندم إلى آفاق أرحب وأوسع في ظل مبادئ الدين الإسلامي الحنيف .

---

(١) رواية نور الله ، جـ١ ، ص ٣٩٠ : ٣٩٣ .

وقد طرح الكاتب الشخصية من عدة وجوه :

أولاً : الشخصية مقرونة بواقعها الاجتماعى المقسوم إلى طبقات وألوان بشرية ممزقة لا يحكمها مبدأ عادل ، وهنا ظهرت الشخصية الانتقامية الوحشية لوحشى ، وبدأ بحثه المستمر عن كيفية الخروج من هوة القاع إلى قمة المجد والسيادة ، حيث الحرية وتنسم عبيرها ، دل على ذلك الحوار الذى دار بينه وبين حبيبته عبلة .

أدار إليها وجهه الأسود ، وبريق عينيه يومض فى الظلمة وقال :

نحن العبد أتعس ما فى الوجود .. حياتنا سقيمة .. معقدة .. قوامها الذل والكدر والأحزان .. السعادة شئ نسمع عنه ولا نلمسه أو نمارسه فلا تتحدثى عن البساطة والمتعة .."-" ويحك ياوحشى!! إننى أعيش فى بيت سيدى .. أعمل وأنام ، وآكل وأشرب واختلس بعض الساعات لأجلس إلى جوارك ".

واستشعر فى ذلك كله متعة كبيرة إننى خلقت لهذا ، ولماذا تطمع الأمة التى مثلى فى شئ أكثر من ذلك ؟؟ " (١) .

قهقه فى سخرية حاقدة وقال :

" الحرية .. "

- الحرية ؟؟ عجيب أمرك .. ستكون الحرية عبئاً لا تتحمله كواهلنا الضعيفة .. سنبذل جهود مضاعفة لننال اللقمة .. ..
- " اننى أكره هذه الحياة .. أكره كل شئ الناس والدواب .. السادة والعبيد .. مكة والمدينة .. أننى لم أتلق منهم غير الذل والاحتقار .. ولن أعطيهم غير الحقد والغيظ المدمر.."(٢)

---

(١) رواية " قاتل حمزة " للدكتور نجيب كيلانى ، ص ٩ .
(٢) رواية " قاتل حمزة " للدكتور نجيب كيلانى ، ص ٧ .

وهنا يبدو البحث عن الحرية أمراً لا مناص منه وسمة تميز هذه الشخصية وتجعلها واضحة منذ البداية ، خاصة أنها تشعر بالتلاشى والضآلة والاضمحلال النفسى والاجتماعى والقيمى .. وأصبحت الحرية هدفاً تتحطم أمامه كل المعوقات ، سواء أكان حلالاً أم حراماً ، فمن وجهة نظره أن ليس فى الحياة حلال أو حرام – الحياة هى القوة والمال .. العبيد الفقراء ليسوا أحياء .. الضعفاء ليسوا أحياء .. نحن موتى .. الشاة والناقة والحمار كلها تجد العناية من صاحبها .. أما نحن .. وا كرياه !! لم نصل إلى مرتبة الإنسان ولم نحظ بمرتبة الحيوان " (١) .

وهكذا تبدو الشخصية محطمة منهارة من وقوعها فى براثن العبودية والرق ، إذ تمثل العبودية لها قيوداً وأغلالاً عليها أن تنجو منها بأى ثمن أو تضحية ، فواقعها معتم ومستقبله مظلم ، فكانت العبودية والرق المعبر والمنفذ لهذه الشخصية التى تريد أن تتحرر وتحظى بالمستقبل ، ولم يجد سادة الشرك فى قريش صعوبة فى التغرير بها ، وسوقها إلى ارتكاب فعلتها الشنيعة وقتل حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه وأرضاه ، خاصة وأنه يمتلك موهبة بارعة فى استعمال الحربة.

فقد قال له سيده :

" أى وحشى إننى أعرف براعتك فى استعمال الحربة ، إن رميتك يا وحشى لا تخيب أهل مكة يعرفون بطولتك وبأسك منذ زمن بعيد..ولقد أدركت فيك هذه المواهب وكنت أراك جديراً بكل تقدير وحب .. وأراك أيضاً جديراً بأن تنعم بالحرية .. أن تكون سيد نفسك يا وحشى .. عند ذاك تستطيع أن تعود إلى الحبشة بلادك .. أو تبقى فى مكة حراً ، يربطك بى حلف مقدس حتى لكأنك واحد من أهلى .. لكن لكل شئ ثمن " **يا وحشى**

---

(١) السابق ، ص ٨ .

" وعندما تدفع الثمن غالياً فسيصبح ما تحصل عليه أغلى وأقيم .. تلك طبيعة الحياة .. أنت تعلم أن رجال محمد قد قتلوا عمى " طعيمة بن عدى " فى معركة بدر.. قتله حمزة عم الرسول . والله يا وحشى لئن قتلت حمزة لأهبنك الحرية ، وأغدقن عليك ما يؤمن مستقبلك ، وبعد أيام تخرج للقاء محمد لنرى ما أنت فاعل .. إنها فرصة العمر يا وحشى .. فماذا أنت قائل ؟؟ " (١) .

ووحشى الباحث عن الحرية المطلقة بأى ثمن ، لم يكن بغافل لأمر الإسلام وما فيه من حريات واسعة وهداية غير مشروطة بسفك دم ، ولكن الخوف والجبن وعدم القدرة على الصلابة وتحمل المشاق ، كانت سبباً فى تهيبه وعدم جرأته فى خوض معركة الدخول تحت راية الإسلام . لقد فكر بادئ ذى بدء فى أن ينطلق إلى " محمد " ويؤمن برسالته لكن سيده " **جبير** " لم يكن ليتركه حياً كما فعل سيد بلال .. إنه يعرف شدة سيده وضيقه بمحمد ورسالته ، وخاف وحشى أن يفقد حياته وحريته معاً فآثر الانتظار (٢) ، ومن مظاهر تعاطف الكاتب مع الشخصية ، استدعاء عنترة بن شداد وقصة عبوديته وحريته وموقف قبيلته منه ، محاولاً بذلك أن يقرن بين الحالين ، حال وحشى وعبوديته وكيفية التخلص من سجن العبودية ، وحال عنترة مع حبيبته عبلة وكيفية الفوز بها رغم عبوديته ورقه وهى حرة من علية القوم ، وقد يتفق الحالان فى ظاهرهما ، لكنهما مختلفان أشد الاختلاف فى باطنهما ، فعنترة ينتمى إلى عصر جاهلى وقضيته قضية حب يريد أن ينمو ويترعرع وتعوقه العبودية فهى مسألة تتعلق بالوجود وعدمه ، ولم يطلب منه أن يقتل أحداً غيلة وغدراً حتى يظفر بالحرية والحب معا ، بل طلب منه النجدة والاستغاثة ، ورغم كل

---

(١) رواية " قاتل حمزة " د/ نجيب كيلانى ، ص ١٠ .
(٢) السابق ، ص ١١ .

ما قدمه إلا أنه واجه صعوبات كبيرة إلى أن وصل إلى المنزلة التى يتمناها وهى فوزه بحريته وبحبيبته .

وقضية وحشى هى قضية سيد من سادات مكة الغلاظ يريد أن يثأر لدم عمه الذى أهريق دمه يوم بدر على يد حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، فاتخذ من وحشى العبد الذليل آلة وحربة رحيصة لقتل أسد الله غيلة وغدراً وهى طريقة لم تكن تفخر بها العرب فالشرف عندهم أن يتواجه المتحاربان وجهاً لوجه ، وليس خلسة أو من وراء صخرة بعيدة ولم يجد السيد الغليظ مدخلاً فى شخصية وحشى إلا العبودية والرق ، ولم يكن أمام وحشى إلا خيار واحد وهو القبول بذلك ، حيث الحرية التى ينتظرها والمجد الذى يعتليه إذا نال الحرية وامتلك المال ، ودفعه إلى ذلك رغم وجود نماذج نالت حريتها ، وأصبحت لها مكانة عالية مرموقة فى ظل المجتمع الإسلامى الجديد أمثال بلال وغيره من الذين اعتنقوا الإسلام، وكابدوا كثيراً حتى تحقق لهم النصر على أعدائهم .

أقول دفعه إلى ذلك الحقد الطبقى والحقد الاجتماعى ، المتمثل فى سيده جبير والخلاف هنا يكمن فى الوسيلة التى سلكها كل منهما ، فعنترة الفارس الهمام لم يسلك فعلة ساقطة بل انتصر لقومه ودافع عن شرف قبيلته وشرف حبيبته التى تنتمى إلى هذه القبيلة ، ووحشى سلك المسلك الذى ظل يعانى منه طيلة حياته حتى بعد إسلامه، فهو لم يحقق شرفاً لقومه ولا لنفسه ، فهو عبد حبشى لا ينتمى إلى قريش ولا إلى جبير بن مطعم .

الوجه الثانى الذى عكف عليه الكاتب هو الحالة النفسية لوحشى بعد أن ارتكب جريمته ونال حريته ، وهى عادة الكاتب دائماً مع شخصياته ، إذ يطرح قضية الصراع النفسى والمعاناة الداخلية إزاء كل حدث تفعله الشخصية .

وقد كمن الصراع فى وحشى متمثلاً فى الوجود وفى الظفر بحبيبته ، وكلاهما لم يتحققا كما كان يظن ، وأهم من ذلك حالة الضياع التى يعيشها ، والتى دلل عليها بقوله " يا عالمى الذاتى الغريب لقد ضعت فى سراديبك المتشعبة " .. وقضية الصراع فى هذه الشخصية مرتبطة إلى حد كبير بالحرية ، ومظاهرها ومعايشتها على أرض الواقع ، فرغم حريته هناك حائل يمنع من الارتباط بحبيبته التى يتمناها فهى مازالت مملوكة لسيده جبير بن مطعم ، وطارئ آخر جد على العلاقة بينهما ، فقد اعتنقت حبيبته الإسلام " وترى أن الدين الجديد أصبح فى حياتها كل شئ ، ويجب أن تخلص له فى السر والعلن ، وأن تهب نفسها وروحها من أجل دعوة محمد ، وهو يرى أن الحرية والحب أغلى نعمة فى الوجود ، وأنه لا يصح أن يعول إلا عليهما .. ومن هنا جاء الصدام .. ألا يمكن أن يلتقيا مرة أخرى ؟ لقد أصبحت بينهما مسافة طويلة من التنافر وكيف يستطيع أحدهما أن يطوى هذه المسافة طياً ويلحق بالآخر ، وتعود علاقات الود القديم .. ومن ثم لا يصح أن يتسرع فى الوشاية بها .. إن الوشاية ستصم عاطفته وصمة لا خلاص منها " (١) .

والصراع الطويل الذى يعانيه " وحشى " امتد به إلى التفكير فى الدين ومحمد والإله الواحد لكنه لم يكن ليصل به إلى الحقيقة الواضحة ، فالحرية عنده حرية فردية ذاتية ، حرية من كافة القيود المتعلقة بالدين أو الأخلاق ، الحرية تعنى الفوضى وتعنى الانطلاق المستمر نحو الشعور بالذات ، وظل الصراع مستمراً فى الشخصية رغم كل ما مارسته من رذائل وحماقات مع الباغية " وصال " ، ورغم مشاركته لأهل مكة فى العداء للإسلام والمسلمين ، وتحريضهم المستمر للنيل من محمد ودعوته وقد أطال الكاتب فى توضيح جوانب هذا الصراع النفسى ومظاهره ، التى كانت تتجلى واضحة حينما يشعر

(١) رواية " قاتل حمزة " د/ نجيب كيلانى ، ص ٦٠-٦١

وحشى بأن شبح حمزة يطارده ، وهنا تبدو فكرة الكاتب من توضيح هذا الصراع وهى الألم الشديد والإحساس بالجرم الكبير، وقد صور الكاتب أحد هذه المواقف مقدماً الجانب المتصارع فى الشخصية مع أنه يكاد ينهار تماماً يقول **د/ نجيب كيلانى** :

وتجلت لوحشى فى الظلام صورة حمزة بن عبد المطلب فأصابه الارتياع ، الخمر لم تزل تمور برأسه ، والخيالات تحتشد وتتداخل ، وكاد يصرخ من الرعب ، آه .. العار يلاحقه والخطيئة ترتسم له ، وتؤرق حياته ، لم تفلح الخمر فى إبعاد الشبح عنه . ماذا يرى ؟؟

لا شك أن ذلك مجرد أوهام .. لقد مات حمزة وانتهى الأمر. ويحاول جاهداً أن يبعد صورة حمزة عن ذهنه ، لكنها تتجسم ، وتلح فى عناد ، حتى لكأنها حقيقة .. وأخذ يجرى ويلهث ، لو رآه أحد لرماه بالجنون .. تحسس حربته .. يا للكارثة !! إنها ليست معه ترى ماذا نسيها ؟؟ ثم توقف لاهث الأنفاس .. صورة الشهيد تطارده وتبتسم فى سخرية وكأنه على قيد الحياة .

ماذا أرى ؟ الموتى لا يبعثون .. إنهم يستحيلون إلى رماد وعظام نخرة .." **وخيل إليه أن همسا يطن فى أذنيه : " أنت واهم ضال بل الموتى يبعثون أيها المأجور الذليل "** .. ماذا يسمع وحشى أصوات كثيرة تطن فى أذنيه ، الصورة المشرقة الباسمة تتحدى الظلام إنه يحاول أن يفتح عينيه جيداً ، ويهز رأسه ليبعد النوم والسكر وصاح بأعلى صوته " **هذا هراء .. أنا لا أخاف ..** " وصدرت بالقرب منه ضحكة ساخرة .. من أين صدرت هذه الضحكة ؟؟ أنه يلتفت يمنة ويسرة ، فلا يرى إلا صورة حمزة أنى اتجه ببصره ، إنه محاصر لا يستطيع الإفلات .. وصرخ ماذا تريد منى؟؟ تكلم .. لقد قتلتك لأنال حريتى "[1] ، وتسير الأحداث سريعاً ، وينتصر الإسلام ويعلو شأنه ، ويعلو شأن المبادئ

---

(١) رواية " قاتل حمزة " د/ نجيب كيلانى ، ص١٦٠-١٦١ ، وورد هذا الموقف فى الرواية فى صفحات ٢٥٦ و٥٠٢ .

الرفيعة وكلما ينتصر الإسلام تنحسر الشخصية فى نفسها ، ويزداد صراعها النفسى ويعبر الكاتب عن ذلك باستدعاء أبيات شعرية لامرئ القيس ، التى تصف حياة وحشى بأنها ليل مظلم ممتد لا ينجلى :وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى فقلت لـه لمـا تمطـى بصلبـه وأردف إعجـازاً ونـاء بكلكـل لا أيهـا الليـل الطويـل ألا انجلـى بصبح،وما الإصباح منك بأمثل[1].

وينتقل الكاتب بالشخصية إلى صراع من نوع آخر، وهو صراع الندم والحسرة فقد اعتنق وحشى الإسلام وتقابل مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانطلق قائلاً:

❖ **" جئتك يا محمد أشهد ألا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله "**

ابتسم الرسول فى رضى ، ثم دقق النظر فى الرجل الواقف أمامه ، وسرعان ما ذبلت ابتسامة الرسول ، وبدأ الألم والضيق على وجهه وقال فى تأثر :

❖ **" أوحشي أنت ؟!"**

قال وحشى :

❖ **" نعم يا رسول الله ... "**

وسادت فترة صمت قصيرة ، كانت مليئة بآلاف المشاعر التى لا يعلم كنهها إلا الله ، وقال الرسول بصوت متهدج :

❖ **" اقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة .. "**

انهمرت دموع وحشى ، وأخذ يروى كل شئ .. والرسول يستعيد اللحظات الأليمة فعلى أكتاف الشهداء الأبطال وعلى رأسهم حمزة ، قام هذا البناء العظيم ، وفاض

---

(١) السابق ، ، ص١٥٥ .

النور في كل الأرجاء ، وامتدت دعوة الله ، فشملت الجزيرة .. .. .. وما أن انتهى وحشي من كلامه حتى قال رسول الله لوحشي :

❖ **" ويحك !! غيب وجهك عني .. "**

❖ **لقد أسلم وحشي .. وأصبح من المسلمين الأحرار لكن .. "** (١) .

وهنا يكمن الصراع الجديد في قول الرسول صلى الله عليه وسلم " غيب وجهك عني " ولقد عبر وحشي عن شدة وقع هذه الكلمات على نفسه لصديقه سهيل حينما قال :

❖ **آه يا سهيل .. ليته قتلني واسترحت .. محمد يقول لي غيب وجهك عني كلماته يا سهيل ستدور في عرض الجزيرة وطولها .. وسيحملها التاريخ كي تتناقلها الأجيال المقبلة ، كلمات ستغرس في قلبي ورأسي وجسدي فتحرمني السعادة ، وتشوب سعادتي باعتناقي دعوة الله "** (٢)

وقد خرج الكاتب بالشخصية من هذه الدائرة المتصارعة عن طريق الحلم الذي وظفه الكاتب خير توظيف ، فبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وانتقال الخلافة إلى أبي بكر ، ثم اشتراك وحشي في المعارك الإسلامية ومنها معركة **" اليمامة "** والتصدي لمسيلمة الكذاب وقتله ، جلس وحشي يهز حربته ويقول: بحربتي هذه قتلت خير الناس بعد رسول الله ، حمزة بن عبد المطلب ، وشر الناس مسيلمة الكذاب .. "

ثم أغفا قليلاً من شدة التعب والسهر ، وبعد ساعة أفاق من نومه فرحاً سعيداً ووجهه ينطق سعادة وبشراً ، وأخذ يصيح **" الله أكبر .. الله أكبر .. "** جاءه أحد المجاهدين قائلاً "

---

(١) رواية " قاتل حمزة " د/ نجيب كيلاني ، ص ٢٥٨-٢٥٩ .
(٢) السابق ، ص ٢٦٠ .

❖ - ماذا جرى يا وحشى ؟؟ "

قال وحشى ، وعيناه تسبحان فى الأفق الصافى ، وكأنه فى حلم رائع بهيج :

رأيته فى منامى .. كان فوق جواد أبيض .. وابتسم لى ، كنت خائفاً .. لكنه طوقنى بذراعيه وقبلنى .. وأخبرنى أننى سأكون معه فى الجنة "

من هذا يا وحشى ؟؟ "

حمزة بن عبد المطلب .. عم الحبيب .. رسول الله .. ورأيت من حولنا الحدائق الخضراء و رياحين .. وريح المسك .. وحمائم تسجع .. وأنغاماً حلوة شجية .. أجل .. مطلع .. النور .. حيث تبدو الحقيقة .. وهى أروع ما تكون صفاء وصدقاً .. وفى أرضها الخصبة تورق نفس الإنسان بالخير والرخاء والحب والأمل .. " (١) .

وهنا يأتى الحلم ليخرج بالشخصية من حسرتها على ماضيها إلى آفاق أرحب وأوسع وإلى حقيقة هامة ، وهى ربط مطلع النور بالحقيقة ، التى تجعل نفس الإنسان تجاهد من أجل الحب والرخاء والخير والأمل .

٤- أبرز شخصيات رواية (اليوم الموعود) :

أ) الشخصية المناضلة (عدنان بن المنذر) :

شخصية رمزية ، طرحها الدكتور نجيب كيلانى ، فى روايته " **اليوم الموعود** " التى تحكى قصة كفاح الشعب المصرى ، ضد هجمات الغزو الصليبى ، فى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى ، عندما تصدى لحملة لويس التاسع على مصر ، ومن يقرأ مقدمة الرواية يتبين له عدة أمور أهمها ما يتعلق بمفهوم العلاقة بين الفن والتاريخ ، وكيفية المزج بينهما

---

(١) رواية " قاتل حمزة " د/ نجيب كيلانى ، ص ٢٦٨-٢٦٩ .

والقدرة على التعبير والابتكار، مع الالتزام بالحقائق التاريخية ، عندما يربط الكاتب أشخاص القصة بأحداثها .

والدكتور نجيب كيلانى يهدف فى قصته إلى شئ مهم ، وهو الإشارة إلى الكفاح المرير للشعب المصرى ضد أعدائه ، وضد حكامه المستبدين ، ولما كان الشعب المقهور هو هدف الكاتب ، فكان عليه أن ينتزع شخصية تمثل هذا الشعب ، شخصية لم تكن معلومة لدى المؤرخين ولا وجود لها فى كتب التاريخ ، فاستعمل قدرته الروائية على الخلق والابتكار للنماذج الإنسانية -- يقول الكاتب " وقد اقتضت الظروف التاريخية أ، يهتم مؤرخونا القدماء بأخبار الملوك والكبراء ويربطوهم بالأحداث ، ويشيروا إلى الشعوب نفسها إشارات مجملة لا تكفى ، ولا تشفى غليلاً ، فما أكثر الأبطال المغمورين الذين ذهبوا ضحية الواجب دون أن تذكر عنهم كلمات تفصيلية فى كتب التاريخ ، ولكى نعبر عن الكفاح الشعبى ونعطيه المكانة اللائقة به كان من الواجب أن ننتزع منه شخصية تمثله ، وما أكثر الشخصيات . وإذا كانت كتب التاريخ لم تحرص على تسجيل الأسماء ، فلن نحيد عن الحقيقة أو الأمانة التاريخية ، إذا ما لجأنا نحن إلى الشخصيات الموضوعة ، إلى جانب الشخصيات الحقيقية التى ورد ذكرها فى بطون الأسفار " (١) .

وشخصية " عدنان بن المنذر " التى أوضح الكاتب فى المقدمة أنها ترمز إلى الشعب الذى يتألم ويصبر ، لكنه يهب لنجدة بلاده متناسياً أحزانه الذاتية (٢) . قد رسمها الكاتب حسب خطة روائية منذ البداية ، فهناك القهر ، وهناك التعبير عن الكفاح الشعبى وعن الآلام والأحزان والطموحات .

---

(١) مقدمة رواية " اليوم الموعود " د/ نجيب كيلانى ، ص ٧ .
(٢) رواية " اليوم الموعود " د/ نجيب كيلانى ، ص ٨ .

والشخصية لها وجهان أحدهما ظاهر والآخر خفي ، تكشف عنه الأحاديث النفسية والمنولوجات الداخلية ، التي تساعد في توضيح العوامل المتصارعة ، وكشف الرغبات والأماني ، والشعب أيضاً له صورتان ، إحداها الصورة الداخلية ، التي تكشف عن معاناته وتمزقه وشتاته بسبب طغيان الحاكم ، والثانية الصورة الخارجية التي تتركز في العدوان ، ومحاولات البطش به خارجياً .

ولعل الأهمية الموجهة للشخصية مبعثها هذا الدمج بين حالها وحال الشعب حتى أصبحت هي النبض الحقيقي ، وهي المقياس الذي يقاس به سعادته وشقاؤه ، وأصبح اليوم الموعود . يوماً يوحي بالأمل ، ويوحي بالنصر والخلاص من العدو الخارجي والداخلي على حد سواء ، وقبل إن يخوض الكاتب في الشخصية ، عكف على حال الشعب . موضحاً تأوهاته وتمزقاته ، وتوزعه بين أطماع المماليك ، وسطوة بني أيوب ، بينما الملك الصالح يحاول جاهداً ، أن يلم الشمل ويوحد صفوف الأمة .

فيقول معبراً عن ذلك " ماذا نعمل لأمراء بني أيوب ؟ إن كلاً منهم يقيم لنفسه عرشاً ، ويمسك بيده صولجاناً ، حتى أحالوا البلاد إلى جماعات متفرقة متناحرة ، والطمع يدفعهم إلى الاستزادة من السيطرة ويجرهم إلى الحرب التي لا طائل تحتها بعد أن كنا مضرب المثل في التآلف والتماسك " (١).

وحال " عدنان " لا يختلف عن حال الشعب ، فيقدمه الكاتب مصاحباً للقهر والمحن والآلام النفسية يقول عدنان محاوراً أمه ، التي تعاتبه على هربه من السجن " عام كامل أقضيه في السجن بلا ذنب جنيته ، ثم تلومينني على فراري ؟ من أدراك أنهم كانوا سيطلقون سراحي أنا الآخر ؟ أنسيت أني غريم توران شاه ابن السلطان ؟ ألا تعلمين أن

(١) رواية اليوم الموعود ، د/ نجيب كيلاني ، ص ١٤ .

من يعادى السلاطين أو أبناءهم إما أن يذوق الموت ، وإما أن يترك فى ظلام الأسر تأكله القيود ويذيبه الظلام ؟ (١) .

وتذكر أحداث الرواية أن توران شاه ، اعتدى على عدنان فسلبه حريته وألقاه فى السجن ، وضم جاريته زمردة إلى جواريه ، ورغم أن الكاتب يبعث فى الشخصية روح الانتقام ممن كانوا سبباً فى فقده الحرية ، نراه فى الوقت نفسه يطرح قضية العدو الصليبى ، الذى قد يسلب الجميع حريته ، ويصبح عدنان بين نارين ، نار الثأر والانتقام من الحاكم الفاسد ، ونار الجهاد الذى يفرض نفسه على كل إنسان حر يطمح فى حرية وطنه.

يقول الكاتب واصفاً حالة عدنان وتوزع نفسه بين الأمرين " لكن أية حياة تلك التى نحياها فى ظل العسف والعبودية ؟ إن الأرض أرضنا ولكنها ليست لنا ، وأمراء بنى أيوب رغم ماضيهم المجيد وتاريخهم الحافل ، قد نبتت من بين صفوفهم فئة تظلم وتطغى أأسلم قيادتى لمثل هؤلاء ، وأحارب تحت رايتهم فإذا ما انتصروا عادوا ليسرقوا النساء ويثيروا الفزع ، ويتحاربوا من أجل السيطرة والمطامع الشخصية ؟ لا .. لا ، هذا لن يكون (٢) .

وأخذت نفس عدنان تصطرع وتلتهب ماذا يقرر؟ وأين يذهب ؟

إلى أن انتصرت الحمية الدينية والوطنية فى نفسه بعد عناء وتفكير طويل " فيغمغم بينه وبين نفسه ، وهو يبتسم ابتسامة حزينة " أليس من العار أن اتجه إلا حصن كيفا " لانتقم لنفسى ، وجموع الشعب تسارع إلى دمياط لترد الصليبيين ؟ " (٣) .

---

(١) السابق ، ص ٣٢ .
(٢) رواية " اليوم الموعود " ص ٤٥ .
(٣) السابق ، ص ٤٦ .

ويذهب عدنان إلى المعركة ، ويلجأ الكاتب إلى المؤثرات الخارجية ، التى تدفع الشخصية إلى المزيد من الحماس والانصهار فى الحالة العامة للبلاد ، والاندماج الكامل فى الشعب وبيئته من هذه المؤثرات الطبيعية ، وصفه لمدينة المنصورة ، ووقع ذلك فى نفس عدنان " وكانت المنصورة فى ذلك الوقت مدينة جميلة فيها الأسواق الرائجة والحمامات الرائعة ، والمنتديات الغاصة بالرواد ، والمساجد الشامخة والأبنية الباذخة التى تدل على الثراء والتحضر " (١) " ولاحت المنصورة من بعيد فى أحضان الشمس الوهاجة ، والنيل يحف بها وكأنه ذراع قوية سمراء تحميها من بطش المعتدين ، وظهرت مآذنها ومبانيها ثابتة شامخة (٢) ، ومن المؤثرات العامة التى لجأ إليها الكاتب أيضاً ، وصفه لجموع الشعب وهى متدافعة نحو المعركة ، ومدى أثر ذلك على نفس عدنان " وتساءل عدنان بينه وبين نفسه: ترى ماذا تكون مشاعر الإنسان وهو يجاهد جنباً لجنب مع هؤلاء الناس فى أتون المعركة؟ أيخاف الموت أو يرهب الأعداء ؟ أيفكر فى موت أو حياة ؟ أتراوده خواطر الثأر من إنسان تافه مثل توران شاه ؟ إن الإنسان إزاء هذا الموكب المقدس لينسى ذاته ويتجاهل كل مطامعه الشخصية الأنانية التى لا تثور إلا فى فترة من فترات الضعف " (٣).

ومع إرادة الشعب انطلق عدنان مع صديقه عبد الأعلى بن سلمان ، تحت لواء القوات الشعبية غير النظامية ، وقاما بالأعمال الانتحارية ، التى يجدان فيها لذة كبرى وحرية أكثر ، وشجع على ذلك أن الملك الصالح يؤيد مثل هذه الأعمال ، ويرصد لها المكافأة والمنح ، بل ويعطيهم قطعة ذهبية مقابل كل أسير من الأعداء " (٤).

---

(١) السابق ، ص ٦٦ .
(٢) السابق ، ص ٦٩ .
(٣) رواية اليوم الموعود ، ص ٦٩ .
(٤) السابق ، ص ٩٢ .

وظل عدنان على حالته وموقفه من قضية الجهاد والحرية ، ولم يثنه ذلك عن التفكير فى اليوم الموعود الذى ينتظره ، وهو اليوم الذى تتحقق فيه الأمانى المتعلقة بعودة زمردة ، وهزيمة الفرنج والانتقام من توران شاه ، وقد اتفق حال المعركة الشعبية ومصيرها مع حاله ، حيث كان يرى أن المعركة " تسير فى اتجاهين اثنين أحدهما خفى لا يظهر للعيان وهو يتعلق بالتخلص من توران شاه ، وثانيهما هو المعركة الواضحة المكشوفة التى تدور رحاها بيننا وبين الفرنجة " (١) .

وهكذا تسير الشخصية الرمز عبر ممرات الحيرة والقلق ، والتعلق بالآمال الموحدة والطموحات الكبيرة ، فيتساءل ويناقش نفسه أين ذلك اليوم الموعود الذى كان يهذى به عندما غشيته الحمى ؟ ما الذى تحقق منه حتى الآن ؟ إن زمردة جاريته ، أو بتعبير أدق زوجته المرتقبة قد ذهبت بعيداً ولم يعثر لها على أثر ، وتوران شاه فى قمة مجده تساق له الأسرى ، ويقاد إليه لويس مقيداً ذليلاً ويرتع فى ملاذه وشهواته وكأنه لم يظلم أو يسرق النساء أو يرتكب الموبقات ، وهكذا لم يثأر منه أحد ، أو يناقشه الحساب ، وعبد الأعلى بن سلمان رفيق العمر ، قد اختفى هو الآخر ، ولا يدرى أيطول غيابه أم يقصر؟ " (٢) .

وهكذا تبدو الشخصية وقد انصهر فيها الحلم الكبير المتعلق بحرية الوطن ، بالحلم الفردى ، وتبقى الشخصية الرمز صامدة قوية ، تعبر عن حال شعب بأسره وكأنه صداه ورغم أن الرواية مليئة بالشخصيات التاريخية والموضوعة ، نجد أن عدنان يمثل الاتجاه الإيجابى فيها ، الاتجاه الذى يأبى الظلم والقهر ، ويمثل الثورة الحقيقية للأمة عند شعورها باليأس والقهر ، ولم يترك الكاتب جانباً فى الشخصية إلى وظفه فى تأييد وجهة نظره .

---

(١) السابق ، ص ١٣٨

(٢) السابق ، ص ٢٢٤ .

٥- أبرز شخصيات رواية (مواكب الأحرار) :

أ) الشخصية الثائرة (الحاج مصطفى البشتيلى):

يقدم الدكتور نجيب كيلانى فى روايته"**مواكب الأحرار**"مجموعة من الشخصيات التى تعبر عن الشعب المصري فى فترة من فترات المد القومى والتطلع إلى عالم الحرية ، فقد انتزع الكاتب أبطاله من الحركة الوطنية الشعبية المصرية ، التى ثارت فى وجه نابليون وجيوشه ، وأرغمته على الخروج من مصر ، إبان الحملة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى ، وكما هى عادة الكاتب دائماً فى تناوله للشخصيات الاجتماعية والأخلاقية يلجأ إلى كشف سوءات المجتمع وانحرافاته من خلال تحليله لأبعاد الشخصية ، وما تنطوى عليه من صراعات وأحقاد ، ترتبط إلى حد كبير بالإصلاح الاجتماعى وسبل تحقيقه .

والحاج " **مصطفى البشتيلى** " أحد كبار تجار القاهرة المرموقين ، يرفض الرضوخ لظلم المماليك وغدرهم ، ويرفض السلبية المفرطة لأبناء الشعب لكن ماذا يفعل ، هذا العجز الظاهر فى الشخصية ، استغله الكاتب فى كشف ملامح المجتمع ، ونفذ منه أيضاً إلى أبعاد الحركة الوطنية وهيمنتها على كافة طوائف الشعب ، يقول الكاتب موضحاً ما ينطوى عليه الحاج " مصطفى " إن العجز يحاصره من كل مكان ، لكأنما قد قيدت يداه ورجلاه بقيود لا فكاك منها ، لا .. بل إن روحه هى الأخرى يشعر وكأنها سجينة مقهورة لا تستطيع التحليق والانطلاق ، لطالما فكر فى أن يثور.. أن يحمل سلاحه وينطلق فى شوارع القاهرة وميادينها ومسامرها ليسحق الرؤوس العفنة ، ويحطم كل القيم السخيفة التى تشعر دائماً بالذل والهوان .. لكنه وحده .. والوحدة هى العجز.. لكن لماذا يشعر دائماً أنه وحده ؟؟ آه .. التجربة .. الناس كثيرون ، والسخط يملأ القلوب ، والألسنة

الثائرة تعبر عما يجيش فى القلب من تمرد مكبوت .. لكن عندما يجد الجد يحدث الشلل .. ذلك المرض الخبيث .. يقف الناس مطرقين عاجزين ، الخوف يقيدهم ، والرهبة تخرس ألسنتهم ، فقد أيقنت غالبيتهم أنه لا جدوى من أية تضحية .. الناس نائمون مخدرون .. لا .. لا .. إنهم ميتون " (١) .

هو لا ينسى يوم أن دهم بعض المماليك متجره ، ونهبوا قدراً كبيراً من تجارته وأمواله تحت سمع الناس وبصرهم بل أمام عينيه هو.. ماذا حدث ؟؟ الناس الذين طالما أحسن إليهم ، ويسر لهم سبل العيش ، جمدوا فى أماكنهم وقد أفزعهم بريق السيوف وأصدقاؤه الخلص تواروا عن الأنظار مخافة أن يحيق بهم الضرر ، وأهل الحى كانوا يرمقون ما يجرى من خلف النوافذ والأبواب المغلقة والمشربيات ، وهم يتمتمون " ياساتر أستر" (٢) . هكذا يبدو الناس فى ذلك العصر ، وقد تمكن منهم العجز ، وأصبحت السلبية سمة تميزهم آنذاك ، بسبب القهر المطلق ، والسلطة الغاشمة ، وفى أتون هذه الصراعات والمظالم الواقعة ، يأتى نبأ قدوم حملة فرنسية بقيادة نابليون بونابرت ، للاستيلاء على مصر وإخضاعها للسيطرة الفرنسية ، ويصبح هذا الخبر نقمة على شخصية " **الحاج مصطفى** " وبداية صراعها الحقيقى ، وانطلاقها إلى آفاق أوسع من الحرية الشخصية الذاتية ، فالمماليك والفرنسيين كلهم ملعونون ، لكن نحن .. ما مصيرنا ؟ .. وإلى متى نظل ألعوبة فى يد الغرباء والغزاة ؟ .. هل خلقنا الله لنكون مطية يركبها كل قادم من وراء البحر ؟ .. هل كتب علينا أن تبقى حياتنا سلسلة متصلة الحلقات من الإذلال والضياع ؟ .." (٣) .

---

(١) رواية " مواكب الأحرار" د/ نجيب كيلانى ، ص ٧ .
(٢)رواية " مواكب الأحرار" د/ نجيب كيلانى ، ص ٨ .
(٣) السابق ، ص ٩ .

وتظل حادثة اجتياح الفرنسيين لمصر ، هى المحرك الأساسى للشخصية ، وبداية الانفجار الثورى فيها ، ضد كل قوى الشر والبطش ، ويعكف الكاتب على كافة الجوانب فى الشخصية ، فيكشف ما فيها من ضيق وآلام وصراعات نفسية داخلية وخارجية ، ومن ذلك مناقشة قضية الاحتلال ومستقبل **أسرة " الحاج مصطفى "** وموقفه من زوجته وأولاده فزوجته تشير عليه بالرحيل إلى مكان آخر حيث الأمن والاستقرار ، كما فعل الكثيرون ولكنه يرفض ويعد ذلك هرباً لا يليق بالحاج مصطفى ، كيف يترك وطنه وأهله .. ويكون رده على زوجته :

- ❖ " كفى عن هذا الهراء .. إذا لاذ الجميع بالفرار فلمن تكون تلك الديار ؟ وكيف نقابل الله وقد تقاعسنا عن الجهاد فى سبيله ؟ لسنا وحدنا يا جاهلة " (١) .
- ❖ إن طريقى واضح مستقيم ، وفكرى صاف كالشمس المشرقة .. لسوف أبقى هنا وأقف فى وجه كل غاز ، حتى ولو كنت وحدى .. لكن تيقنى أن الناس قد بدأوا يتغيرون ، إن المصائب الكبرى توقظ النيام ، تحيى الموات .. تلك المصائب تنتصب كالمغناطيس الضخم وتجمع وتجذب الناس من حولها ولا يتخلف أحد .. حتى الجبناء .. إنه تجمع قهرى يا أم زينب .
- ❖ ثم انتفض واقفاً ، وانتعل حذاءه ، وأخذ يرتدى بقية ملابسه "
- ❖ والتفت إلى الحسين قائلاً :
- ❖ هيا معى ..
- ❖ قالت زوجته فى يأس :
- ❖ إلى أين ؟؟ ..

---

(١) السابق ، ص ٢٢

❖ زيارة قصيرة للشيخ السادات .. (١).

وخروج الحاج مصطفى من بيته مصطحباً ابنه قاصداً الشيخ السادات ، غير عابئ بشئ يؤكد اندماجه وتلاحمه مع القوى الشعبية ، ويؤكد أن الشخصية الروائية " يجب أن ينظر إليها على أنها كل وليست جزء ، بل ولا يمكن أن تكون جزءاً فى لحظة من اللحظات وهى لا يمكن أن تكون جزءاً بالنسبة للمجتمع ، أو بالنسبة لأى كل عام ، إنها تمثل أعلى مكان فى سلم القيم ، غير أن قيمتها العليا تفترض مضموناً كافياً يتجاوزها "(٢)، ولأن الدكتور نجيب كيلانى يطرح هذه الشخصية معتمداً على هذه القيمة الموضوعية والفنية فقد عمد إلى دمجها داخل التيارات المتصارعة داخل المجتمع خاصة التى تنشد الحرية والاستقلال ، إذ أن شخصية الحاج مصطفى تمثل وجهة نظر الأحرار وتمثل وجهة نظر التاريخ الأخلاقى للشعب المصرى ، حيث أنها ترفض الهرب ، وترفض التقاعس وتأبى الضيم ، وتريد أن تظفر بحريتها ، وتنزعها انتزاعاً من بين براثن المحتل ، وهى فى سبيل ذلك لا ترهب الموت ولا الحصار ، القيمة الحقيقية فيها تكمن فى حرية المجتمع وبراءته من تهاونه وتخاذله .

لذا فقد قدمه الكاتب من جميع الجوانب ، مستخدماً المؤثرات الخارجية التى توضح وجهة نظره فالحاج مصطفى يقرأ منشور نابليون ساخراً منه ومن مراميه الخبيثة " طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير ، فيصلح حالهم ، وتعلو مراتبهم ها هو " **المسلم نابليون** " يلوح لمن يوالون بالفائدة العظمى ، ويمنيهم بأعلى المراتب .. يفتح مدرسة جديدة للخيانة والغدر ، ويبث فيها مبادئه المدمرة " !

---

(١) رواية " مواكب الأحرار " د/ نجيب كيلانى ، ص ٢٢ – ٢٣ .
(٢) مجلة فصول ، العدد الرابع ، شتاء ١٩٩٧، ص ٦٧ .

ويستمر المنشور.. طوبى أيضاً للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد الفريقين المتحاربين ، فإذا عرفونا بالأكثر، تسارعوا إلينا بكل قلب ، لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا ، فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر" هكذا يكشف الذئب عن نواياه ! .. إنه يقسم البلد إلى طوائف سيحارب طائفة ويهادن أخرى . أما من يعرف واجبه الوطنى ، وينفذ ما يمليه عليه ضميره ودينه فلسوف تحل به لعنة الرجل المؤمن ، الموحد بالله ، المسلم العريق نابليون بونابرت ! ..

وتبلغ لحظة الكشف والوضوح مداها ، حينما يقرأ الحاج مصطفى المادة الثانية التى تقول: **"كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار"** .. أجل ، هكذا يكون الدين ، وهكذا تكون المدنية وهكذا يكون تخليص المظلومين والتعساء "[1] ، وتبدو قدرة الكاتب على إبراز ثراء الشخصية بكثير من المضامين الأخلاقية والنفسية والاجتماعية التى تكفل لها القيام بالدور المنوط لها ، ويعتبر هذا إجراء روائى مشروع ، بل إنه فى أكثر التجارب الروائية يعد ضرورة تحتمها مقتضيات الفن كما يقول أحد النقاد مؤيداً هذا التصرف فيقول : إن أى فنان سواء أكان روائياً أو غير روائى ، ومهما كان شأنه التقنى والمعرفى ، يحاول أثناء رسم شخصيته أن يحشد عبرها أكبر كمية ممكنة من القيم والعناصر والملامح النفسية والسلوكية ، التى يراها منحدرة إلى الفرد من المجتمع ، لتصبح الشخصية بالتالى نافذة يمكن الإطلال منها على مساحات واسعة من الواقع الحياتى ، ويمكن أن

---

(١) رواية مواكب الأحرار، د/ نجيب كيلانى ، ص ٤٠ – ٤١ .

تكون أيضاً مسبراً يساعدنا فى تعرف التراكب الرأسى لمجمل القضايا الأخرى التى يضيق عنها المسح الأفقى "(١) .

وهذا ما قام به الدكتور نجيب كيلانى ، حيث التحليق فوق مساحات واسعة من التضحية الوطنية الممثلة فى ظاهرها العام فى ثورة القاهرة الأولى والثانية ، والتى يظهر باطنها الجانب الشخصى الفذ عند الحاج مصطفى البشتيلى ، والجانب الشكلى العام الذى يتمحور فى الدور الروحى الكبير الذى قام به الأزهر ورجاله فى التحريض على الثورة والإعداد لها ، ومناقشة أمورها من كافة الجوانب المادية والروحية ، وامتزاج ذلك الجو العام بالشخصية ، وقد كشفت لغة السرد عن ذلك يقول الكاتب : " فى داخل الأزهر الواسع الجليل ، شعر البشتيلى – كعادته – باطمئنان غريب ، ذلك الاطمئنان الذى يخالج قائداً هماما ، وقد أوى إلى قلعة حصينة لا تستطيع أية قوة أن تتخطى أسوارها ، أو تقتحم حماها .. عشرات من الرجال يستعدون للثورة الشاملة ، ولم تكن القيادة لنوع واحد من الرجال ، فقد كان هناك التجار والأعيان وصغار أرباب الحرف والمهن المختلفة ، ولم يكن لقب عالم وقفاً على رجال بعينهم تخصصوا فى دراسة الدين والعلم ، بل كان العلم مشاعاً فكثير من التجار أو أصحاب الحرف يتناوبون خطب الجمعة فى الأزهر الشريف ، وتطلع البشتيلى إلى الوجوه الكثيرة التى تشرق بالثقة والأمل ، يقرأ فى العيون رغبة أكيدة فى التضحية والصبر عليها .. هنا ينسى البشتيلى أى تردد ، وينسى تلك الفلسفات التى تثرثر بها زوجه ، ولا يذكر سوى أنه بين رجال كبار النفوس يسعد الإنسان بالنضال معهم ويلتقى بأى مصير مهما كان رهيباً " (٢) .

---

(١) مجلة فصول ، العدد الرابع ، شتاء ١٩٩٧، ص ٦٧، من مقالة بعنوان شخصيات عربية فى روايات عربية – صلاح صالح .

(٢) رواية " مواكب الأحرار " د/ نجيب كيلانى ، ص ١٢٦ .

ويزداد هذا الامتزاج الروحي والأخلاقي في الشخصية عندما يمضي في طريقه ويشتد به العجب وهو يرى ألواناً شتى من أبناء الدول العربية: " مغاربة وشوام وسودانيين ويمنيين وحجازيين وعراقيين .. إنهم جميعاً يهتمون بالأمر وكأنه يعنيهم بالدرجة الأولى ويلتقون مع إخوانهم المصريين في جدل صاخب ، ويبدون رغبتهم بالمشاركة في البذل والتضحية .. ويتمتم البشتيلي بينه وبين نفسه : سنضع لهم في كل حارة متراس ، ولسوف يتفجر الموت من تحت أقدامهم أينما ساروا ، سيرون شعباً بأسره وقد تحول إلى جيش كبير يمتد في كل ناحية ، ومن الضروري أن يرى فينا الأعداء أمة صلبة صعبة المراس ، تدافع عن معتقداتها وشرفها وحريتها بكل ما أوتيت من قوة .. ستنفجر اللعنة عليهم لأوهى الأسباب .. إنني أرى الجماهير تزمجر وتتوثب ليوم الثأر ، ولن تستطيع قوة في الأرض أن توقف تدفق البركان الهادر .. مرحباً بالموت " (١) ، ويشترك الحاج مصطفى البشتيلي في الثورة الأولى ، ويقبض عليه ويلقى به في غياهب السجون ، ويحيا في السجن حياة البؤساء ، ويحاول السجان أن ينال من كرامته وعزته ، وحريته لكنه يعدّ ذلك كله دفعة أمامية نحو تحقيق الحرية ، فيزداد ثقة في إيمانه بمبادئه الأخلاقية (٢) ، وعندما يخرج من السجن ويسير في شوارع القاهرة يناجي مبانيها وأسوارها ومساجدها ، فتثير في نفسه الشجن والحزن لما وصلت إليه ، وقد أحسن الكاتب حينما جعل المدينة تخاطب الشخصية ويخاطبها ، معلناً إنه قد نسي أحزانه وما لقيه في السجن فيقول : آه .. عدت إليك ياليل القاهرة ، يا ذا الأسرار الغريبة .. ياذا الرموز والأشباح والذكريات والمواويل الحزينة .. عدت إلى الشوارع الخالدة من مئات السنين التي لا تهجرها الخطوات العنيدة والسير المستمر إلى الأبد .. إلى المساجد السامقة بمآذنها وقبابها .. إلى القبة الزرقاء

(١) رواية " مواكب الأحرار " ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .
(٢) السابق ، ص ١٦٩ .

الصافية.. إلى الرجال الذين تجمدت الدموع فى مآقيهم ، وامتلأت قلوبهم بالعزم الحديدى.. إلى الأطفال يا قاهرة المعز.. وللأطفال فى قلبى منزلة فريدة تزخر بالحب والحنان والبراءة والحيوية والسعادة البالغة ..آه .. عدت إليك ياليل القاهرة .. ياقلبها الخافق .. هذا هو عهد الله .. أن أظل أنسج من خيوط الليل المدلهم الدرع الواقى لمجدك يابلدى .. وأظل أدق أعتاب المقطم حتى ينبثق فجر المنى .. ويبدد الشقاء والعناء " (١)

ويشترك الحاج مصطفى أيضاً فى ثورة القاهرة الثانية ، ويقود الناس وينظم صفوفهم، وظل هكذا يقاتل ويدافع حتى نفذت ذخيرته ، وتهدمت البيوت ، وأصبحت بولاق كومة من الرماد ، فيختفى عند صديق له مدة من الوقت ثم يخرج باحثاً عن مأوى آخر ، لكنه يقع أسيراً فى أيدى رجال الاحتلال ولا يتركون له فرصة للدفاع عن نفسه ، فينهالون عليه ضرباً ، حتى وقع قتيلاً شهيداً ، وقد فقد الزوج والولد ولم ينل حريته التى طالما تغنى بها وحلم بها .. وتتوقف أحداث الرواية عند موته ، وهذا يؤكد أن الكاتب ، يوجه عنايته للشخصية ، فالأحداث معلومة للجميع أما الأشخاص الذين ضحوا بأرواحهم وأموالهم فى سبيل الله – فيحتاجون دائماً إلى من يذكر بهم – وبما قدموه لأوطانهم وحرياتهم .

٦- أبرز شخصيات رواية (طلائع الفجر):

أ) الشخصية العادلة (شخصية طاهر بك) :

تعتبر شخصيات رواية " **طلائع الفجر** " للدكتور نجيب كيلانى ، شخصيات تاريخية مستمدة من حركة المقاومة الشعبية المصرية ضد العدوان الإنجليزى فى بداية القرن التاسع عشر الميلادى ، حينما أرسلت إنجلترا حملة عسكرية بقيادة " **فريزر** " عام ١٩٠٧م للاستيلاء على مصر وضمها للسيادة البريطانية ، وتدور أحداث الرواية فى منطقة

(١) السابق ، ص ٢٠٤ .

الإسكندرية ودمنهور ورشيد ، على ساحل البحر المتوسط ، وقد أبدى أهالى المنطقة بطولات فائقة فى مقاومة العدوان ورده خائباً إلى بلاده .

وقد عالج الكاتب فى هذه الرواية العديد من القيم الإنسانية الخالدة ، منها الحرية والنضال والإيمان الكامل بحب الوطن والدفاع عنه بكل غال ونفيس ، وقد حرص على أن يقدم الأشخاص التى تحمل هذه الأفكار والمعانى السامية ، وقدم أيضاً فى المقابل الشخصية الدخيلة الفاقدة للانتماء والقابعة فى بئر الخيانة ، ويحاول الدكتور نجيب كيلانى ، من خلال أشخاصه ونماذجه البشرية ، أن ينتصر للحق المطلق ، ويدحض مزاعم الباغى مهما كان أسلوبه ومهما كانت قوته ، إيماناً منه " بأن الفن يقدم نماذج إنسانية تتربع القمة ، وأخرى تتأوه على السفح ، وغيرها تعانى من أهوال الحضيض ، أجل إنه يحتضن الإنسانية ككل ، دون تميز طبقى ، أو تملق عنصرى ، والقصة الصادقة هى التى تنبض بمشاعر الإنسان ، ويفوح منها أريج القيم الخالدة وتضئ سطورها بدعوة التقدم والحب والحرية والنضال والإيمان " (١) ، وقد طرح الكاتب قضية النضال والكفاح الشعبى الباسل من خلال أسرة " **طاهر بك** " عمدة رشيد وزوجه ونجليه محسن وإبراهيم ، ويمثل طاهر بك الحاكم العادل الذى يخشى الله ويرهب عذابه ليس كغيره من الحكام الطغاة المستبدين الذين ينهبون أموال الناس ، فهو محب للناس جواد كريم وبسبب كرمه وجوده أصبح مديناً يعانى من كثرة الديون وعدم القدرة على الوفاء بها ، إن نقطة ضعفه أنه إنسان وإن إنسانيته تفرض عليه بعض الواجبات ، وتجعله يؤمن بمثل عليا قل أن يكون لها ضريب فى تلك الأيام .. أجل من أبرز عيوبه فى نظر الناس أنه جواد كريم ورحيم بالفقراء والكادحين هؤلاء الحفاة العراة فى أزقة رشيد الضيقة وبيوتها المتضعضعة ، وفى

---

(١) مقدمة رواية " طلائع الفجر " للدكتور نجيب كيلانى ، ص ٥ .

مضارب الأرز.. ومصانع الطوب الرشيدى الشهير، ومع ذلك فإن طاهر بك راض عن كل ما يفعله، وهو واثق تمام الثقة أن الله لن يخذله أو يضيعه، لقد أدى ما ألزمه به ضميره وارتضته له إنسانيته، وأمره به دينه وهو العالم المتفقه الذى يخشى الله، ويرهب عذابه ويتعشق جنته، ويؤثر ما يبقى على ما يفنى" (١).

وتبدو شخصية " **طاهر بك** " متماسكة إزاء الأحداث المضطربة، محبة لوطنها رغم أن جذورها العرقية ممتدة من أصل تركى، بل إن طاهر بك دائماً ما كان يعيب على الأتراك ظلمهم وقسوتهم فيقول مخاطباً حاكم رشيد " **على بك السلانكلى** " إنكم معشر الحكام الأتراك قساة غلاظ كم أرهقتم الناس بالضرائب، وكلفتموهم فوق ما يطيقون حتى ضجوا بالشكوى، واستعاذوا من الفقر، فامتلاءت نفوسهم بالأحقاد، وباتوا ينتظرون فرصة كى يشمتوا بكم فيها، إن الناس قلما يتحركون للدفاع عن أرض تسيمهم الخسف.. والهوان، ويلاقون فيها الضياع والمغبة، ويعيشون فيها حيوانات لا كبشر "(٢).

ومن مظاهر الحرية والوطنية فى شخصية طاهر بك، حرصه الشديد على ضرورة إشراك ابنه محسن فى القتال، ويعتبر عدم خروجه للحرب مسبة فى جبين تاريخه الوطنى والنضالى(٣) كذلك موقفه الذى اتسم بالشجاعة والرضى حينما وقع ابنه محسن فى الأسر وأصبح رهينة فى يد الإنجليز" فلم يفكر أن يطأطئ رأسه أو يضحى بأتفه شئ، من مصلحة المدينة لحماية محسن، كان طاهر بك يفهم أنها معركة والمعارك تضحيات متصلة، والنصر فى ركاب المؤمنين بحقهم، والمضحين بأرواحهم، وماذا يفعل طاهر بك إذا حم قضاء الله، وساق القدر ولده إلى مصيره الرهيب فليسلم أمره لله، وليأخذ بالأسباب

---

(١) رواية " طلائع الفجر" للدكتور نجيب كيلانى، ص ٣٦.
(٢) السابق، ص ٥٥
(٣) السابق، ص ١٧ - ٢٠.

على أساس أن يجعل مصلحة المدينة فوق كل اعتبار، فالأفراد تفنى والأوطان لا تموت " (١).

وظل طاهر بك على مبدئه لا يحيد عنه أبداً فهو مثال للقائد المتماسك، والأب المحرض أبناءه على خوض المعارك النبيلة، وقد هدف الكاتب من وراء هذه الشخصية إلى إثبات الانتماء وتحقيقه قولاً وفعلاً، وأن الإنسان ابن بيئته وأرضه التى أنجبته وعليه أن يدافع عنها ويحميها أيا كان موقعه، ورغم تعدد مواقف الشخصية وانفعالاتها، إلا أنها تعد شخصية ثابتة غير متطورة، وإن بدا عليها أحياناً مظاهر الصراع النفسى من جراء الأحداث، الذى كشف عن جانب العجز، وعدم القدرة على المواجهة الحاسمة.

ب) الشخصية الوطنية المكافحة (إبراهيم بن طاهر بك):

ومن الشخصيات البطولية فى الرواية، شخصية إبراهيم بن طاهر بك، وتعد من الشخصيات الرئيسية التى لعبت دوراً كبيراً فى أحداث الرواية، وقد قدم الكاتب لهذه الشخصية ومهد لأسباب بطولاتها وتفوقها فى هذا الميدان، ويرجع ذلك إلى فهم الشخصية لطبيعة الحياة، وإيمانها العميق بأن الموت حقيقة تنتظر الجميع، فجهادها مبنى على أساس عقائدى وفلسفة أخلاقية ودينية، يقول إبراهيم: " النهاية لكل مخلوق هى الموت ولا مهرب لأحد من هذا المصير والحياة كالحلم .. والناس يتحركون كأشباح، ولا شك أن الوجود الحقيقى هو فى العالم الآخر .. هذا ما أومن به .. ومن ثم فأنا لا أخاف الموت " (٢)

ومن ناحية أخرى فهو دائماً يحفز أخاه للاشتراك فى المعارك، وترك حياة الدعة والاستهتار (٣)، ويختلف معه كثيراً بشأن قعوده عن أمر الدفاع عن المدينة، ورغم أن

---

(١) السابق، ص ٩٩ – ١٠٠.
(٢) رواية طلائع الفجر، د/ نجيب كيلانى، ص ٢٤.
(٣) الرواية، ص ٤٤

الكاتب قد أحاط الشخصية بهالة وطنية وكفاحية أشبه بالأسطورة ، إلا أنه لم يتعامل معها بقدر مكانتها الحربية والجهادية ، فهى تبدو فى أحيان كثيرة مهمشة قليلة العناية والتأمل فيها وفى سير حركتها عبر الرواية وأحداثها ، يلاحظ أن الكاتب قدمها منذ البداية مستوية كاملة الإدراك الوطنى والأخلاقى ، فهو يختلف عن أخيه محسن ، فى أنه ليس مغرماً بالنساء ولا بالمجتمعات المتحللة من التميز الوطنى والجهادى ، ويعيش بصورتين الصورة الأولى يعرفها الجميع وتعرفها الأسرة ، حيث أنه يشترك فى المعارك الحربية ضد الإنجليز ، ويخرج دائماً فى الليل بحجة أنه يقوم بمهمة ما فى المدينة ، والصورة الثانية لم يفصح عنها الكاتب وتركها غامضة حتى النهاية ، عندما وقع إبراهيم أو " **القنع** " جريحاً فى المعركة الحاسمة مع الإنجليز ، وكشف عنه القناع وعرفت حقيقته ، بأنه هو الذى أرهب الإنجليز وطارت شهرته بين أهالى رشيد ، وقد أدركت زوجته " **روز** " ذلك فقالت مخاطبة إياه ذات مرة : "إنك تمثل شخصيتين بارزتين يا إبراهيم ، إحداهما تعيش معى تحت سقف واحد ، والشخصية الأخرى غامضة تمام الغموض لا أعلم عنها إلا أنها تقضى معظم الليل وأحياناً الليل كله فى أعمال لا أدرى عنها شيئاً أو تقوم بمهمة ما فى المدينة " (١) ورغم أن الكاتب أظهر الجانب الإنسانى والاجتماعى فى الشخصية من خلال المواقف البطولية التى كان يرويها الناس ويتعجبون منها ، إلا أنه لم يعكف على النواحى النفسية أو المناجاة الداخلية ، التى تساعد فى كشف الكثير من الجوانب البطولية ولم يقدم شيئاً عن الأوصاف الجسمانية أو الملامح الشكلية ، فهى شخصية كان يعوزها الكثير من الاهتمام والتقديم لكافة جوانبها ، خاصة ما يتعلق بالجانب العسكرى ، وتنتهى الرواية باستشهاد إبراهيم وكشف حقيقته ، وهزيمة الإنجليز ، وانتصار أهالى رشيد .

---

(١) رواية " طلائع الفجر " د / نجيب كيلانى ، ص ١٥٧ .

جـ) الشخصية المترفة المدللة (محسن بن طاهر بك) :

ومن الشخصيات المتطورة فى الرواية شخصية محسن بن طاهر بك ، وهى شخصية عاشت لنفسها فى البداية ، حيث الترف والنعمة وحب الذات ، بسبب تدليل أمه ورغم أن الأب لم يكن راض عنه وعن تصرفاته ، خاصة المتعلقة بمطاردته للنساء ، وشيوع ذلك فى أوساط رشيد ، إلا أنه لم يكن فى استطاعته أن يدفعه دفعاً للقتال بسبب محاباة الأم له ، ويظل محسن على هذا الوضع إلى أن يلقى عساكر الإنجليز القبض عليه وعلى خطيبته " **وداد** "، وينتقل إلى مرحلة أخرى من حياته حيث القسوة والتعذيب ومصارعة الأهوال ، حيث أن الإنجليز كانوا يظنون أنه يعرف شيئاً عن اجتماعات أبيه وخططه الحربية ، وهنا يبدأ التحول الإيجابى فى سلوك محسن ومبادئه ، خاصة وأنه اقترب من عدوه وعرفه عن قرب ، وذاق مرارة الحبس والتعذيب ، ومما زاد سخطه وغضبه ، معاملة الإنجليز لخطيبته " **وداد** " ومغازلتهم لها.

ويبدأ الكاتب رصد معالم التحول فى الشخصية ، فيكشف عن معدنها ، وحقيقتها وإصرارها على ضرورة المشاركة الفعالة فى حرب الإنجليز ، ويجد محسن فى تماسكه وصلابته فرصة متاحة للنيل من عدوه " فعناده وكراهيته لهؤلاء الإنجليز بجانب جهله بحقيقة حركة المقاومة ، التى تعد فى بيت أبيه ، كل ذلك عصمه من الانهيار والانزلاق فصبر على ما يلاقيه من أهوال نفسية وجسدية"(١).

وحتى يزيد الكاتب من حماس هذه الشخصية ويزيد من تعبئتها ، فقد جعله يسمع مصادفة من الضباط الإنجليز أمراً من الأمور الخطيرة والتى قد تجهض المقاومة ويتعلق هذا الأمر بحقيقة قطان باشا وخيانته ، وما دبره بشأن زواج ابنته من إبراهيم بن

---

(١) رواية " طلائع الفجر " د/ نجيب كيلانى ، ص ١٤٣ .

طاهر بك ، حتى يحصل على الأخبار والمعلومات والوثائق الحربية عن طريق ابنته روز علم محسن بهذه الحقيقة وأسرها فى نفسه إلى أن فك أسره واصبح حراً ، بمساعدة أخيه إبراهيم ويلعب محسن أولى أدواره الإيجابية فيرسل خطابين أحدهما إلى قطان باشا والآخر إلى " روز" يأمرهما بالكف عن الخيانة ، فقد عرف أمرهما ، وأن يتبرع قطان باشا بنصف ماله لحركة المقاومة ، ومما زاد الأمر أهمية توقيعه على الخطابين باسم **"المقنع"** .

ويلاحظ أن انتقال الكاتب بالشخصية من واقع إلى واقع آخر معاش ، واقع تقبل عليه بإرادتها ، قد أثرى البناء الروائى وزاده عمقاً ، نتج عنه ارتباط الشخصية بالأحداث والقدرة على التحول ، والقدرة على المواجهة ، وقد بدت مهارة الكاتب فى إظهار التفاعل الإيجابى للشخصية ، وهو تفاعل قائم على مقاومة الذات وقهرها وخضوعها للمستجدات الجديدة .

د) الشخصية الخائنة (قطان باشا):

وتجسد شخصية قطان باشا ، السقوط والانحدار فى أبشع صورهما ، وذلك بسبب فقده لعوامل هامة منها الانتماء للأرض التى احتوته واحتضنته ، ومنها فقره للوازع الدينى والأخلاقى ، وبالتالى للحمية الوطنية ، وهى شخصية مرتبطة إلى حد بعيد بالمادة وتحقيق الذات والفردية ، وقد عبر عن فلسفته حينما تساءل مع نفسه " إلى أى شئ ينتمى ، فقال " من أنا ؟؟ رجل بلا وطن .. أنا لا أنتمى لشئ .. العالم كله لا يساوى لدى قلامة ظفر .. أنا أنتمى لذاتى .. كل ما أريده أن أعيش ثرياً آمنا .. وأن ترفل ابنتى فى أحضان السعادة .. اللعنة على كل المبادئ .. الناس عبيد المال .. عبيد الخوف .. كل يعمل من أجل نفسه .. كلهم أنانيون " (١) .

---

(١) رواية " طلائع الفجر " د/ نجيب كيلانى ، ص ١٥ .

ومما يؤكد هذه النزعة الإجرامية فى الشخصية ، " **أن قطان باشا** " أو الجاسوس ٥٦٦ ، ليس من أهل رشيد ، وإنما هو أرمينى نزح من أرمينيا بعد أن سادتها الاضطرابات وفقدت حريتها وأمنها ، ولجأ إلى رشيد مستوطناً بها .. ولكى يضع حداً للمآسى والعذاب الذى عانى منه فى حياته السابقة ، فقد اعتنق الإسلام ، ونال الجنسية المصرية ، وطال به المقام فى دمشق ، واستطاع أن يكون ثروة كبيرة من التجارة ، إلى جانب أنه كان من كبار المرابين " (١). ومما يؤكد النزعة النفعية فى الشخصية أن علاقتها بالإنجليز كان " مدارها أمران هامان ، أولهما الاستفادة المادية التى يحرص عليها قطان أشد الحرص ، وثانيهما وعد بذله له الإنجليز بمعاونة أرمينيا حتى تجتاز محنتها وتنال استقلالها " (٢) . وكانت وسيلته فى استقاء المعلومات والأخبار هى ابنته " روز " حينما أشار عليه الإنجليز أن يزوجها إبراهيم بن طاهر بك ، فتكون قريبة من المكان الذى تدار فيه الاجتماعات الحربية ويكون إبراهيم تحت بصرها ، فتستطيع أن تستخلص منه الأسرار والوثائق المتعلقة بحركة المقاومة الشعبية .

ومن هنات الكاتب أنه ربط الخيانة بالطاعة الأبوية وحقوقها ، فروز زوجة إبراهيم "كانت تؤدى دورها كزوجة محبة لزوجها أشد الحب ، وكان تفكيرها فى سعادتها وسعادة زوجها تملأ عليها وقتها ، أما ماعدا ذلك فقد كانت تقذف إلى أبيها من آن لأخر بنبأ اجتماع من الاجتماعات لا غير ، لتلهيه به وتقضى بذلك حق الأبوة ، وتوهمه أنها مطيعة لأمره ، محققة لرغباته ، فأراحت أباها لحد ما وفى نفس الوقت أرضت ضميرها " (٣) .

---

(١) السابق ، ص ٢٥
(٢) السابق ، ص ٢٥
(٣) السابق ، ص ١٩٢

وقد فرض هذا النموذج المتردى طابعاً من الصراع بين المادة والذات ، وبين المادة وإنسانية الشخصية ، مما جعلها تبدو من البداية مكتملة العناصر والنمو، فقد بدأت حاقدة كارهة للوطن الذى ضمها وأحنى عليها ، وظلت هكذا حتى أكلت نفسها بنفسها ولم يلجئ الدكتور نجيب كيلانى هذه الشخصية لعملية النمو والتطور والتفاعل والاندماج بين الطبقات الشعبية فى حربها ضد الإنجليز، بقدر ما لجأ إلى إبراز الجوانب المتصارعة فى الشخصية وعكف على التحليل النفسى والمناجاة الداخلية ، لكثير من المواقف المتعلقة بالأحداث ونتائجها ، وخاصة موقف النهاية وحسرة الشخصية واندحارها ، فقد كشفت الأحاديث النفسية الناجمة عن الصراع الداخلى ، السقوط الأخلاقى وعاقبته ، يقول قطان باشا مخاطباً نفسه " آه لن أسلم نفسى للجلاد .. سوف انتقم بنفسى من نفسى هذا أرحم .. وداعاً ياروز.. وداعاً يا .. يا .. رشيد ، إنك بلد جميل كنت أحبك رغم ما بدر منى ، لن تتدلى رقبتى على أعواد المشانق .. لن يرجمونى بالحجارة أو يدوسونى بالأحذية ، ولن يشعر أحد بأننى شربت السم لكى أضع حداً لآلامى وعارى ، سوف يأتى المقنع ليجدنى جثة هامدة .. لن يأخذ أحد شيئاً من ثروتى على الرغم منى .. سوف تكون كلها لروز لعلى أكفر عن منغصاتى لها .. أهنه خاتمة المطاف ياقطان .. من كان يظن ذلك .. أين أحلام أرمينيا .. والاستقلال .. والأمانى الذاهبة مثل خفقة البرق فى الليل الطويل .. هأنذا أموت وحيداً غريباً حطيم الآمال .. لكن روز .. آه .. ياحبيبتى .. أريد أن أراها الآن " (١) .

(١) رواية " طلائع الفجر " د / نجيب كيلانى ، ص ٢٤٧ – ٢٤٨ .

٧- أبرز شخصيات رواية (ليالى تركستان) :

أ) الشخصية الراوية (مصطفى مراد حضرت):

وتقدم رواية " **ليالى تركستان** " [١] للدكتور نجيب كيلانى رؤية تاريخية واقعية لأحداث جسام اجتاحت بلاد التركستان وأحالتها إلى قسمين ، تركستان الشرقية وتركستان الغربية ، الأولى تسيطر عليها القوى الاستعمارية الصينية ، والثانية تخضع لسيطرة المد الشيوعى الروسى ، ولقد استطاع الدكتور نجيب من خلال رؤيته التاريخية الواقعية ، أن يقدم الكثير من المعلومات والأفكار عن هذه البلاد ، فنراه يحيط ببراعة بأسماء البلاد والمقاطعات والمدن والقرى الصغيرة ، ويحيط كذلك بالحوادث التاريخية الهامة فى حياة الشعب التركستانى ، ومن خلال ذلك فقد قدم مجموعة من الشخصيات التى تحمل فكراً ثورياً ووطنياً ودينياً ، استطاعت أن تواجه الخطر الأحمر المتمثل فى الشيوعية وأفكارها المعادية للإسلام ، والخطر الاستعماري الأصفر المتمثل فى الأطماع الصينية ، وقد ساعد على وجود هذين الخطرين أن بلاد التركستان تقع جغرافياً بين روسيا والصين .

والشخصية الرئيسية فى الرواية ، هى شخصية " **مصطفى مراد حضرت** " ، وهو بمثابة الشاهد الأول على الأحداث والثورات التى وقعت فى البلاد ، وقد جعل منه الكاتب راوياً للوقائع والأحداث وواصفاً لكثير من الأشخاص ، بصفته قد شارك فى معظمها وعرف الكثير من أبطالها ، وعلى غرار الأسلوب التقليدى ، يلاحظ أن " **مصطفى مراد حضرت** " قام بالتقديم لنفسه فى الرواية موضحاً مكوناته الثقافية والعلمية والدينية والبيئة التى نشأ فيها ، ومعلقاً فى بعض الأحيان على مشاعره ومواقفه تجاه الأحداث .

---

(١) رواية " ليالى تركستان " للدكتور نجيب كيلانى ، صدرت الطبعة الأولى منها سنة ١٩٧١م .
والطبعة التى قامت عليها الدراسة هى الطبعة الثامنة صدرت سنة ١٩٨٤م .

يقول " نحن الآن فى عام ١٩٣٠ ، أعيش فى مقاطعة " **قومول** " وكانت الصين قد احتلت هذه المقاطعة فى نفس العام ، وبعد الاحتلال أصبح القائد الصينى للمنطقة هو الحاكم بأمره ، كل شئ يجرى على هواه ، والحسرة تملأ النفوس ، وتطل من العيون الحزينة ، وأمير " قومول" المسكين يعيش فى قصره لا يتمتع إلا بسلطة اسمية ، كنت أرى بعينى رأس أفواج الصينيين تتدفق إلى الولاية. أعنى .. أعنى مقاطعة " **قومول** " وحكومتهم تمدهم بالأموال المنهوبة كى يشتروا الأرض ، ويقيموا البيوت ، وينشئوا المتاجر ، كان عمرى إذ ذاك حوالى خمسة وعشرين عاماً .. حفظت القرآن فى المسجد ، وتعلمت القراءة والكتابة باللغة العربية ، وبلغة البلاد ، وأنا أعرف الصينية أيضاً .. نحن نجاور الصين .. ويمكننى فى الوقت نفسه أن أتحدث بلغة أهل " **منغوليا** " القريبة منا ، والواقعة تحت سيطرة الروس ، .. هنا عاش جنكيزخان وأولاده ، .. وهنا قصص كثيرة عن البطولات فى كل فن ولون" (١) . ومصطفى حضرت كان يعمل حارساً فى قصر الأمير ، وقد جعلته هذه الوظيفة قريباً من الأحداث ومشاركاً فى الكثير منها ، لقربه من رجال الثورة وصناع القرار فى الانتفاضة الشعبية ضد الغزاة الصينيين ، وقد نشأت قصة حب بين مصطفى وإحدى وصيفات القصر ، ارتبطت هذه العلاقة فى كثير من الأحيان بما يجرى فى البلاد من أحداث وتطورات ، هذه المحبوبة تدعى " **نجمة الليل** " ، وكانت تتمنع على مصطفى وترفض الزواج منه – إلى أن أصدر الحاكم الصينى منشوراً " يلزم أى تركستانى بأن يزوج ابنته من أى صينى يتقدم لطلب يدها – برغم اختلاف العقيدة "(٢) وعلى ضوء ذلك تقدمت " **نجمة الليل** " إلى مصطفى طالبة الزواج منه لكنه رفض ذلك ، رغم انتظاره كثيراً لمثل هذه اللحظة ، وكان سبب رفضه رغبته فى التفرغ للمعركة والجهاد ، وبتطور الأحداث

---

(١) رواية " ليالى تركستان " د/ نجيب كيلانى، ط(٨) ، ١٩٨٤، ص ٨ .
(٢) السابق ، ص ٩ .

لم يلتق مصطفى بنجمة الليل ، إلا بعد أن اجتاح الصينيون والروس البلاد ومزقوها فالتقى بها وهى زوجة لأحد الضباط الصينيين ، حيث قدمت نفسها فداءاً لأسرة الأمير بعد أن ساعدتهم على الهرب مضحية بنفسها ، ووافقت على الزواج من الضابط الصينى شريطة أن يعلن إسلامه، ويكون على دينها وبسبب هذا الزواج لعنها أهل المدينة ، ورموها بكل نقيصة ، وأبلغوا مصطفى أنها باعت نفسها للشيطان وقد أثر ذلك كثيراً على نفسه وقد عبر عن معاناته النفسية ، التى اقترنت فى نفس الوقت بالضياع الكامل والشامل لكل عناصر الحياة ، فقد ضاع الوطن، وانحطت الحبيبة، وسقط الثوار فى قبضة العدو يقول مصطفى: " ووقفت على تبة عالية وأنا ألهث ، وأنظر إلى بعيد .. يا إلهى لقد سقط **"خوجة نياز" " والجنرال شريف "** وغيرهما فى قبضة العدو ، ثم سيقوا إلى مركز المخابرات أو (ج. ب .أو) لقد تبدد الأمل... كل شئ فى جوانحى يموت .. الحب .. الأمل .. النصر .. كما ماتت بالأمس فى قلبى **" نجمة الليل "** (١).

آلمنى أن أرى أبناء تركستان الشرقية الذين رضعوا الشيوعية أطفالاً ، وعادوا يترجمونها قسوة وعبودية وعنفاً وسخرية بالثوار.. إن أقسى شئ على النفس أن أرى واحداً من أبناء بلدى مكتنز الجسم ، ضاحك العينين ، عالى النبرة .. يسوق إخوانه كما تساق الشاه ويعاملهم كحيوانات " (٢).

وظلت النزعة العاطفية التى يشعر بها مصطفى أثر فقده " نجمة الليل " مرتبطة فى نفسه ، بأحداث البلاد ، فمرة يذكرها بأنها مجرد إفرازات سامة لهذه الظروف العصيبة ، وفى كل بستان جميل قد تنبت أشواك تدمى الأنامل ، وقد تتخفى أفعى بين الورود .. ونجمة الليل شئ شبيه بالهزيل الحقير " **صن لى** " .. ويجب أن تكون حربنا ضد

---

(١) رواية " ليالى تركستان ، ص ٦٩.
(٢) السابق ، ص ٦٩-٧٠ .

" صـن لى " وجيشـه .. وضـد الإفـرازات السـامة القاتلـة التـى تشـبه "**نجمـة الليـل " وأمثالها** " (١) .

وتمـر الأيـام والسـنون المقترنـة بالنكبـات علـى تركسـتان ، ومصـطفى علـى حالـه من الجهـاد والفداء فمـا أن تسـقط قيـادة إلا ويبحث عـن تجمع ثـورى آخـر ، ينطوى تحت لوائـه ، وتـزداد حالتـه النفسية كآبـة وتقطع ليس على حالتـه فقط ، بل على ضياع بـلاده فيشعر بالغربـة فى وطنـه ، ويلاحـظ أن وطنـه شـارد هـائم على وجهـه فى عـالم كلـه ابتـزاز وسجون وقتل ، فينتقل من بلد إلى آخر ، ويغير اسمه فى كل مرة ، وفى " **أورومجى**" إحدى المقاطعـات يعمل حمـالاً ، ويشارك فى حمل خيرات بلاده من كل الأنواع ، ويضعها فى السيارات الضخمة والقطارات كى تشحن إلى روسيا ، يقول " كل الأشياء كانت تشحن معادن ، وفواكه، وبهائم ، ومزروعات " (٢) .

وفى هذه الأثناء يلتقى مصطفى بنجمة الليل من جديد ، وهى مازالت فى كنف الضـابط الصينى فيعـرف منهـا حقيقـة الأمـر ومـا فعلتـه مـن تضـحية لأسـرة الأمـير ، وقـد أخذته إلى مقرها ليعمل خادماً تحت اسم مستعار ، فيصبح اسمه " ثوروسون " وحاولت نجمة الليل أن تراود مصطفى عن نفسه ، فيرفض لأنه يكره الخيانة ، ولأنه مسلم يعرف الله ، وقد دار حوار بينهما عكس موقف كل منهما تجاه الآخر يقول مصطفى :

وجـدتها تـأتى إلى غرفتـى ، ازداد وجهـى شـحوباً مـن كثـرة السـهر ، أحـاطتنى بذراعيها ، ووجدت شفتيها تقتربان .

❖ سيدتى .. يجب أن أعد طعام الإفطار "

❖ لست أشتهى شيئاً ، وأنا لست سيدتك .

---

(١) السابق ، ص ٥٨ .
(٢) السابق ، ص ٩٠ .

❖ القصر كله عيون .

❖ لا أستطيع الصبر.

❖ ما معنى ذلك ؟؟

❖ ألا تفهم ؟؟

❖ وأنا أكره الخيانة .

❖ خيانة الخائن ليست خطيئة .

❖ وأنا رجل مسلم أعرف الله ..

هل كانت تريد الانتقام من زوجها ، أم تريد أن تقدم نوعاً من العطف أوالشفقة أهو الحب القديم تارة وتمرد ؟؟ وأمسكت بيدى فى توسل ، وأنا أهرب من نظراتها ولمساتها مخافة أن تضعف مقاومتى ، وهمست فى انفعال :

❖ على سفوح الجبال رجال يتضورون عذاباً وجوعاً ."

❖ هم رجال حقا ، لكنهم يعيشون حياتهم .

❖ فى الحدود التى أباحها الله .

❖ نظرت كذئب جائع مفترس وقالت مهددة :

❖ أنت تعرف أننى أستطيع عقوبتك .

❖ أهذا هو الحب ؟؟

❖ نعم .

❖ وأنت تعرفين أننى لا أخاف العقاب .

❖ عندما يضمك سجن من سجونهم الرهيبة ، ويلفك الصمت والظلام ، وتهوى السياط على جسدك .. عندها سوف تحلم بدقائق تقضيها إلى جوارى .. "

❖ قلت لها فى ثقة :

❖ لقد نذرت نفسى للموت .

❖ أنت تلعب بالنار .. أنت زوجى الحقيقى .

❖ لكنك فى عصمة رجل أسلم .. وإن كان إسلامه أمراً ظاهرياً .

❖ إذن لماذا أتيت إلى هنا ؟؟

باغتتنى السؤال ، صحيح ، لماذا أتيت ؟ لقد كنت أفكر فى الانتقام طول حياتى من هؤلاء المعتدين ، لكن أين الانتقام ؟ ودق قلبى ، هناك حقيقة أحاول إخفاءها ، لقد كنت أحب **"نجمة الليل"** ، إن قبول المجيء إلى هذا القصر بمت إليها هى الأخرى بصلة وتركتنى وانصرفت ، لم أرها طوال اليوم ، وبقيت أفكر ، لماذا ساءت الحال ، وتحكم فى أرضنا الغريب ، قال لى فى الزمن الغابر أحد خطباء مساجد **" كاشغر "** :

" يابنى إن الإسلام هو العزة ، فمن تمسك به عز ، ومن تركه ذل ، وبلادنا استسلمت لنوم عميق ، وغلبت عليها الدعة والاسترخاء والعبث ، وأخذ الناس ينسلون عن الدين عروة عروة ، يابنى لقد طغى الغنى ، واستسلم الفقير ، وضاعت الحكمة ، ورضخ العلماء للأمراء ، وعم الفساد والفقر والجهل ، وانتشرت المعاصى .. يابنى هذا هو بداية الانهيار" .

وقال أيضاً :

" إن فى الشرق أعداء وفى الغرب أعداء ، وهم يعتصمون بالقوة والكثرة ، ونحن نعتصم بأمجاد قديمة ، والأمجاد القديمة لا تصمد وحدها ، وقال لى يابنى المسلمون ممزقون ، تركيا تنهكها الحروب والمظالم ، والعرب تحت سنابك خيل العدو

صامتون ، والكفر ملة واحدة والمسلمون ملل عدة ، وبذلك تستطيع أن تفسر لماذا يكون النصر ، ولماذا تكون الهزيمة " (١) .

وتتطور الأحداث ، وتقوم نجمة الليل بقتل زوجها الضابط الصيني ، ويعود الحب مرة أخرى بينها وبين مصطفى ، ويتزوجا وينجبا ولداً أسمياه " نياز " على اسم الثائر الكبير " **خوجه نيازحاجي** " ومع تقلب الأيام وتشتت رجال المقاومة تختفى نجمة الليل مع وليدها ولم يكن لدى مصطفى الوقت الكافى للبحث عنهما ، فهو مشغول بالمقاومة والثورة ، وحينما كان يفكر فيها يتهم نفسه بالأنانية يقول: "كنت أنا شخصياً أحاول البحث عن " **نجمة الليل** " وولدى كانت أمنيتى أن أراهما قبل أن أموت .. قد يرى البعض أنها أمنية تافهة فى مثل هذه الأوقات العصيبة ، وقد يرمينى البعض بالأنانية لأننى أفكر فى زوجتى وولدى على هذه الصورة والوطن برمته متعرض للضياع والفناء .. أنا لا أكترث لما يقوله البعض ، فقد تعلمت الصدق مع نفسى وأنا بشر تعرف الدموع طريقها إلى عينيه ويعرف الخفقان سبيله إلى قلبى " (٢) .

وتعد هذه المشاعر لحظات صدق الشخصية مع نفسها ، وتتفتت المقاومة ويتم القضاء عليها ويعدم قادتها ويهرب الناس إلى " **كشمير** " هناك يلتقى مصطفى بنجمة الليل حيث هربت بعد أن اجتاح الطوفان الروسى البلاد كلها .

ويقول **د/ محمد مصطفى هدارة** عن هذه العلاقة وتوظيفها فى الرواية أن الكاتب لم يلجأ " إلى إقحام قصة حب عاطفية للتخفيف من وطأة الالتزام التاريخى ، كما كان يفعل جرجى زيدان على سبيل المثال ، بل نراه يوظف العاطفة توظيفاً فنياً بحيث تصبح عنصراً أساسياً فى نسيج الرواية ، وهذا ما نشهده فى علاقة مصطفى حضرت بنجمة الليل

---

(١) رواية " ليالى تركستان" د/ نجيب كيلانى ، ص ١٠١ : ١٠٤ .
(٢) السابق ، ص ١٧١ .

التى طرأت عليها أحداث متغيرة ارتبطت بالنزعة الدرامية فى الرواية ، وكانت جزءاً أساسياً فى صراع الثورة الإسلامية ، ضد الاستعمار الشيوعى الملحد"(١) .

ومن قوة ارتباط العلاقة العاطفية بالأحداث التى تمر بها البلاد ، أصبحت هذه العلاقة فى مدها وجذرها رمزاً لما يسود البلاد من أزمات ونكبات وقد وفق الكاتب كثيراً فى جعل هذه العلاقة تنمو فى خط مستقيم مع الصراع الوطنى والإسلامى ، أيضاً أثمرت هذه العلاقة أبعاداً متعددة فى الشخصية تتعلق بالمشاعر والأحاسيس ، وتتعلق بالذات الإنسانية وآمالها وطموحها .

ويمكن القول أن شخصية مصطفى مراد حضرت تجمع بين الروح الوطنية والتمسك بالعقيدة الدينية ، وبين النزعة الرومانسية المرتبطة بحب المكان ومحاكاته ، وقد شهد زعيم الثوار " **خوجة نيازحاجى** " ببطولته ، وقلده نوط الشرف على إخلاصه وتفانيه القتالى أثناء المعارك (٢) ، وجاءت نظرته للمدينة مستمدة من وحى حالته النفسية المرتبطة بأحداث البلاد وتقلباتها من ذلك وصفه لقصر الأمير "وبدا لى القصر كمبنى ثرى عتيق من مخلفات الأقدمين " (٣) ، وتتسع نظرته التشاؤمية لترى مدينته **"قومول"** متشحة بالسواد رجالها يشنقون لأقل الشكوك " **وكاشغر**" لا تستطيع أن تقابل أحداً من رجالها الأبطال ، فهم إما متخفون ، أو هاربون فى الجبال ، أو يتظاهرون بتأييد الحاكم الصينى أو يسيرون فى رجال الخبراء الروس ، أصبح من الصعب على الإنسان أن يميز الحقائق وسط العنف الزائد والاستبداد الذى لا يرحم ، وتغيرت معالم الأشياء فى " **أورومجى**" يخيل إلى أننى لا أرى إلا وجوه الصينيين والروس ، الزحف الشيطانى يدير الرؤوس ، ويزيغ

(١) مجلة الأدب الإسلامى – السنة الثالثة – العددان التاسع والعاشر ، إبريل ١٩٩٦ ، ص ١٣-١٤ .
(٢) الرواية ، ص ٤٦ .
(٣) الرواية ، ص ٤٧ .

الأبصار، ويملأ الآذان بالطنين .. وهكذا صرت أتجول من مكان إلى مكان ومن مدينة لمدينة" (١).

ب) **الشخصية العسكرية (عثمان باتور) :**

أيضاً من الشخصيات الثورية فى الرواية شخصية " **عثمان باتور**" ، الذى يمثل الامتداد الوطنى والثورى فى الرواية ، للجنرال " شريف خان " **وخوجة نيازحاجى**" ، وقد جمعت شخصية عثمان باتور ، الكثير من صفات الجندية المتعلقة بالقوة والعقل والمنطق.

يقول الراوى "**مصطفى مراد حضرت** "فى وصفه الخارجى " هنا مقر الجنرال عثمان با تور البطل الذى دوخ الروس والصينيين على السواء ، والذى استطاع أن يمسك ببعض الخونة من أبناء البلاد المتشيعين للروس ، وكان عثمان باتور صارم النظرات طويل الشارب ، كث اللحية كبير الأنف لحد ما ، وكان هادئ الحركة ، رسيما قليل الكلام ، عميق التفكير إننى أعرفه جيداً " (٢).

واهتم الكاتب فى هذه الشخصية بإظهار التضحيات الكبيرة التى أدتها إلى وطنها ، فهو دائماً الذى يجمع الرجال الشجعان حوله ويدربهم وينظمهم ، وقد ظهر من خلال المواقف القتالية والقيادية أن " عثمان باتور " لم يكن متهوراً أو مندفعاً دون حساب فحينما يجد الثغرة فى صفوف العدو يندفع بكل قوته ليحقق الانتصار تلو الانتصار وعندما يجد اشتداد شوكة العدو وتفوقه يتراجع لينظم وينطلق من جديد ، أيضاً من مميزات عثمان باتور العسكرية أنه يجمع بين العقل والصمود الذهنى والبدنى والفراسة الحربية ، ومن الناحية الفنية يلاحظ أنها شخصية ثابتة على مبدأ واحد دائماً وهو المقاومة وحمل السلاح ، ومن دلائل بأسه وصموده ، حينما اجتمع برجاله فى " **جبل آلتاى**"

---

(١) الرواية ، ص ٤٦

(٢) رواية " ليالى تركستان " ص ١١٣

وخطب فيهم خطبة حماسية يذكرهم بماضيهم وحاضرهم ويخبرهم بحقيقة أطماع المستعمرين يقول : " أيها الرجال الصناديد .. إن اليوم عصيب ودقيق ، ويتوقف عليه مستقبل بلادنا ربما لأجيال ، وصراعنا على هذه الأرض طويل ، منذ طمع فينا قياصرة الروس بتحريض من المتعصبين الأوربيين أدعياء المسيحية ، ومنذ أن امتد بصر الصينيين من عشرات السنين إلى بلادنا العظيمة .. أرض البطولات .. والأمجاد . والمعارك الإسلامية الخالدة .. منذ أن اجتزأ كل عدو قطعة من أرضنا في غفلة من الأمراء والحكام اللاهين .. لا أريد أن أتحدث أيها الرجال عن الماضي كثيراً .. وإنما أردت أن أقول إن تحرير أرضنا لن يحققه لنا أحد ، على أكتافنا وحدنا ينهض بناء الحرية .. كذب علينا الروس حينما عرضوا العون ، وكذلك علينا الصينيون حينما زوقوا لنا الأمنيات الحلوة في الحرية والاستقلال كذب " ستالين" والقياصرة من قبله ، وكذب " تشانج كاى شيك " زعيم الصين و " صان يات صان " من قبله " (١) .

ولم يكن عثمان باتور يستمد طاقاته الحربية والعسكرية من حبه لبلاده فقط ، بل كان يجمع بين الحسنيين حب الوطن وتشرب المبادئ الإسلامية ، حيث تنفس نسيم الحرية من بين سطور القرآن ، وعشق الحياة الأبدية فطمع في الشهادة في سبيل الله يقول :" تعلمت من بين سطور القرآن أن أعيش حراً أو أموت مكافحاً عن شرف العقيدة.. ودق الأرض بقدمه وقال :

الحياة هنا قصيرة .. ما أروع حياة الأبد .. ولهذا كانت إرادة الله أن تكون الآخرة هي دار المقام والخلود .. أعجب إذ تتصارع الدول والأفراد في سبيل متعة تافهة محددة بآجال قصيرة ، ولذا ترى الموت في سبيل الله حياة " (٢) .

---

(١) السابق ، ص ١١٦ – ١١٧ .
(٢) رواية " ليالى تركستان " ص ١٦٨ .

ويستمر عثمان باتور فى نضاله وكفاحه إلى أن يقتل جميع رجاله فى المعارك المتتالية ضد الروس والصينيين ، ويسقط هو الآخر أسيراً فى أيديهم ، فيسوقوه إلى ساحة الإعدام فيلقى ربه بملابس القتال وهيئته ، تاركاً وراءه صفحات خالدة ، وتاريخاً بطولياً مجيداً ، وحسرة بالغة على الأندلس الثانية تركستان المسلمة كما كان يسميها .

ويمكن القول أن الكاتب وفق إلى حد كبير فى تقديم شخصية القائد فى مثل هذه الظروف ، ولكن فاته أن يحدثنا عن ملابسات حياته الخاصة ، التى قد تكشف عن أسرار فنية وموضوعية يمكن أن تمد الشخصية بكثير من الثراء الروائى .

حـ) الشخصية المثالية (منصور درغا):

ومن الشخصيات المؤثرة فى الرواية ، والتى قدمها الكاتب من جميع جوانبها شخصية الشاعر الحالم " منصور درغا " الذى ينظر للأمور نظرة مثالية ، تجعل حكمه على الأشياء بعيداً عن الواقع ، فهو كما يقول مصطفى حضرت مثالى حالم ينظم الشعر ويحفظ أحاديث البخارى ، إن منصور يحلم دائماً بالتاريخ العاطر ، لم يحاول أن يوفق بين الماضى الرائع والحاضر التعس ، حتى يحفظ على نفسه شيئاً من التوازن النفسى " (١) .

وقد كشف الحوار مع مصطفى الكثير من معالم الشخصية التى ترفض العيش فى ظل عالم ملئ بالاستعمار والاغتصاب – يقول مصطفى محاوراً منصور فى الواقع :

❖ لماذا لا نقبل الواقع كما هو ؟ ونحاول أن نعالجه ؟

هز منصور رأسه فى غضب وقال :

❖ هناك حالات مرضية ميئوس منها .." (٢) .

---

(١) السابق ، ص ٥٠ .
(٢) رواية " ليالى تركستان " ص ٥٠ .

وقد مر منصور بأزمات ونكبات نفسية جعلته يفقد فهم الحكمة الإلهية فى مصير الأشياء والإنسان ، رغم استمراره فى الجهاد وبكائه كثيراً وطنه وحاله ، يقول منصور رداً على مصطفى حضرت : - ليس هناك أشرف من الجهاد فى سبيل الله يا منصور.

❖ أعرف - لكنى أحياناً أفيق إلى نفسى وأتذكر الأيام الجميلة والطفولة البريئة.. والأهل والغدير والأرض الخضراء والصباح الجميل .. والدنيا المرحة.. لماذا ذهب كل هذا ؟ هل لابد أن يشقى الإنسان حتى يبلغ ينابيع السعادة ؟ وأين هى السعادة يا مصطفى ؟" (١).

وتتطور الأحداث والوقائع الحربية بين كروفر وانتصارات وهزائم ، إلى أن سيطر الروس على معظم مقاطعات تركستان ومنها " آلتاى " وقد وصلت حالة منصور النفسية إلى أبعد مدى من الحقد والكراهية على الأعداء ، لما ارتكبوه من موبقات وجرائم يندى لها الجبين ، فعندما سأله مصطفى عن إيمانه بالبعث قال ساهماً : " إننى أؤمن بالبعث لكننا نبعث فى الآخرة يا صديقى وقلوبنا صافية كالنبع الرقراق .. لن يبعث معنا حقدنا .. إننى أحقد على الروس والصينيين أشد الحقد وعندما يتوارى هذا الحقد فلسوف أفقد لذة كبرى .. إننى أدعو الله أن أبعث حاقداً " (٢).

وأثناء بحثه عن زوجته وسط المدينة الممزقة الجسد ، والتى عاث فيها المحتل فساداً فأحال وقارها إلى عهر ودعارة ، وجد منصور زوجته وقد تجسدت فيها كل نكبات الروس وكأنها وجه للمدينة المغتصبة ، فقد اغتصبها الروس وخلعوا عنها حجابها تقول زوجة منصور :

---

(١) السابق ، ص ١٢٤ .
(٢) السابق ، ص ١٥٠ .

❖ لعنة الله على الشياطين الحمر إنهم مذقوا قناعى فى الشارع "(١).

ولم يستطع منصور أن يمسك زوجته بعد أن رأى الجنود البلشيفيين فى ضيافة زوجته ، تقبلهم وتقدم لهم الشراب ، فسيطرت عليه حالة من البؤس الشديد ، حتى راودته فكرة الانتحار، يقول : "فكرت أن أضع حداً لحياتى ، لكنى رأيت الانتحار جبناً وهروباً وهو يتنافى مع ما تعلمناه من قواعد ديننا الحنيف ، فقد آلمنى يا مصطفى أن أفقد المعركة .. وشرفى .. فى وقت واحد .. تصاغرت أمام نفسى .. خيل إلى أننى مسئول مسئولية مباشرة عن كل ما حدث أنا وحدى المسئول .. هكذا يبدو لى"(٢).

ودفعته حالة اليأس إلى ضرورة الانتقام ، فكانت حادثة المسجد الذى استولى عليه الشيوعيون يريدون أن يحيلوه إلى مخزن لبعض المواد الخام ، وحينما اعترض شيخ المسجد ربطوه فى شجرة وسخروا منه ، وكأن منصور برؤيته هذا المشهد قد وجد ضالته ، فأطلق رصاصه على الشيبة الشيوعيين ، حتى أسقط منهم ثلاثة وحرر شيخ المسجد ، واجتمع الناس من جديد فى المسجد وصلوا ركعتين لله ، وما أن انتهوا حتى جاءت قوة كبيرة من الجيش الروسى مدججين بالسلاح ، فقتلوا عدداً غير قليل ممن كانوا بالمسجد ، ومن بينهم منصور ، يقول عنه مصطفى : " كان رحمه الله يؤمن بأ ن الواجب باق فى عنقه حتى الموت ، وقد استشهد على عتبة المسجد ، وضرب الخونة فى وضح النهار فى عقر تمركزهم وتحرك الناس من حوله ، لقد مات سعيداً دون شك "(٣) ، ويلاحظ أن الكاتب ركز فى شخصية منصور درغا على بعض الأمور والقضايا الفلسفية مثل وجود الإنسان وما هى الحكمة الإلهية فى مصيره ومصير الأشياء المتعلقة بحياته ؟ ، كذلك أظهر الكاتب

---

(١) الرواية ، ص ١٥٢ .
(٢) الرواية ، ص ١٥٩ .
(٣) السابق ، ص ١٦٠ ، ١٦٤ .

الجانب الرومانسى فى الشخصية وذلك لكونها شخصية شاعرة ، تشعر وتتألم وتعانى الحرمان أكثر من غيرها .

وهناك شخصيات أخرى اهتم الكاتب بتقديمها ، وكان وجودها فى الرواية بهدف إلقاء الضوء على ركائز المقاومة الشعبية والدينية فى تركستان ، من هذه الشخصيات الشيخ " خوجة نياز حاجى" الذى بدأ الثورة ضد الغزاة ، وأبدى بطولات فائقة مع غيره من الشخصيات الأخرى أمثال الجنرال **"شريف خان "** و**" أمير قومول "** الذى رفض زواج ابنته من الضابط الصينى ، وجاهد وفضل الموت أميراً حراً ، على أن يهادن الخونة ويبقى على عرشه .

وهكذا تصبح رواية **" ليالى تركستان "** للدكتور نجيب كيلانى ، من الروايات التى اهتمت ببلاد إسلامية بعيدة ، وكشفت النقاب عن جرائم وحوادث إرهابية لا مثيل لها ضد الإسلام والمسلمين ، فقد مزق الطغاة المصاحف وصحيح البخارى ، واغتصبوا النساء وأعدموا الثوار ، ونهبوا خيرات البلاد ، تحت مسمى التقدم والحضارة ، كما قدمت الرواية أشخاصاً كانوا مثالاً للبطولة والشرف ، دافعوا عن دينهم وعقيدتهم ووطنهم حتى آخر رمق وقد تعامل الكاتب مع أشخاصه حسب أهميتهم بالنسبة للأحداث ، وحسب الخطة الروائية الفنية ، فكشف عن نفوس تأكلها الحسرة ، وأخرى تأكلها الغيرة على الدين وفى المقابل هناك أشخاص قد باعوا وطنهم وعقيدتهم وشرفهم جرياً وراء المنصب والمال أو البقاء على قيد الحياة ، وأهم ما يذكر فى أشخاص الرواية النزعة الدينية التى تسيطر عليهم وتدفعهم للتضحية والفداء لوطنهم ، وإيمانهم العميق بأن الواجب الدينى والعقائدى فريضة كبرى تحثهم على بذل النفس والنفيس .

٨- أبرز شخصيات رواية (الظل الأسود):

أ) الشخصية الإسلامية الطموحة: (إياسو إمبراطور الحبشة) :

ويعتبر " **إياسو** " الشخصية المحورية فى رواية " **الظل الأسود** " [١] ، التى تدور أحداثها فى أرض الحبشة ، وتحكى قصة اغتصاب "**هيلاسيلاسى** "عرش الحبشة فى بداية العقد الثانى من القرن الماضى ، بمساعدة القوة الاستعمارية ، مما أدى إلى حروب أهلية استمرت طويلاً ، خلفت وراءها نزاعات دينية وطائفية. وكان " **إياسو** " إمبراطورا لبلاد الحبشة عام ١٩١٣م ، وهى شخصية إسلامية كان لها الأثر المباشر فى الدفاع عن الوجود الإسلامى ، مقابل المد التبشيرى المسيحى ، فى وقت من أشد الأوقات حرجاً للإسلام والمسلمين فى بلاد الحبشة .

وقدم الكاتب شخصية " **إياسو** " من جوانب مختلفة أبانت حقيقة الشخصية الإسلامية وما تحمله من صفات نبيلة ، فقدمه إمبراطوراً يخفى إسلامه ، خوفاً من تأثير الكنيسة فى ذلك الوقت ، ولم يستطع إياسو أن يخفى إسلامه كثيراً لأنه يكره النفاق والمداراة ، ويحب الشجاعة ومواجهة الأحداث ، وقدمه مطارداً فقد عرشه وإمبراطوريته بعد أن اغتصب صهره الرأس تفرى عرش البلاد ، وفى أتون هذه الصراعات ، عكس الكاتب فى هذه الشخصية الكثير من المبادئ السامية ، والتضحيات الكبيرة لنصرة هذه المبادئ ، ويلاحظ أن الشخصية مرت بمراحل مختلفة :

المرحلة الأولى : التى يخفى فيها إسلامه ، لأنه إمبراطور لبلاد تهيمن عليها سلطة الكنيسة ، وحفيد " لمنليك " الذى هدم المساجد وقتل العديد من المسلمين وأقام الكنائس .

---

(١) رواية " الظل الأسود" للدكتور نجيب كيلانى ، صدرت الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢م ، وتقوم الدراسة على الطبعة الخامسة التى صدرت عام ١٩٩٢م .

ويلاحظ الحالة النفسية الثائرة الملازمة " **لإياسو**"، ويلاحظ أيضاً الصراع الكبير بين تظاهره بالمسيحية وإخفاءه لعقيدة الإسلام .

وقد اتضح ذلك فى اللقاءات التى جمعت بينه وبين أبيه الذى يخفى إسلامه هو الآخر، ويكمن كل منهما فى نفسه كرهاً وبغضاً للكنيسة وقساوستها – يقول إياسو مخاطباً أباه فى اشمئزاز بالغ :

" أبتى إننى أكاد أختنق لشد ما أكره هؤلاء القساوسة ، إنهم يتحدثون كثيراً عن الله ، وملكوت السموات ، وعن المسيح الذى حمل على كاهله آلام البشر وخطاياهم حتى يحقق لهم الغفران ، لشد ما يخنقنى يا أبتاه أن أرى تلك الأقنعة الزائفة على وجوههم . إن عيونهم تبرق بالشر وهم يتحدثون عن الرحمة ، ويطنبون فى الكلام عن الاستقامة والخلق القويم مع أن رائحة الخمر تفوح من أفواههم ، ويفتأون يرددون عبارات الأخوة والتسامح وبركات الله ، وتاريخهم كله آثام سود ومجون وعربدة ومشاجرات بين بعضهم بعضاً ؟ (١) .

وأياسو شخصية إسلامية تشعر بآلام المسلمين وترق لحالهم فى هذه البلاد خاصة حينما يتذكر ما كان يفعله جده " **منليك** " فى مسلمى هذه البلاد من قتل وتشريد وتخريب وقد ازداد حزنه وجزعه عندما جاءه مطران الكنيسة " **الأنبا ميتاوس** " يحرضه ويدفعه باسم الرب أن يعيد سيرة جده ويخلص الحبشة من المسلمين ، وقد صور الكاتب الصراعات النفسية المرتبطة بذلك فى مناسبات مختلفة ، يقول الكاتب مصوراً الحالة النفسية لإياسو أثر اللقاء الذى جمع بينه وبين المطران :

---

(١) رواية " الظل الأسود ، ص ٧ .

" بعد أن خرج المطران ، بقى إياسو قابعاً فى مكانه ، ورأسه يدور ، وعيناه تحملقان دون أن يرى شيئاً حوله .. إنه طائر بخياله إلى بعيد ، حيث القرى الآمنة ، والزرع الأخضر ، والأطفال الصغار يمرحون ويهزجون بأغانى الحياة الحلوة الشجية ، والسلام ينشر ظله الوارف على الربوع المترامية الأطراف ، والأحلام الطيبة تداعب القلوب ، وتنعش الأرواح .. وفجأة تثب إلى ذهن إياسو صورة أخرى مناقضة للصورة السابقة تمام المناقضة.. حشود كالوحوش تهجم بسيوفها ونيرانها .. تريق الدماء .. وتحرق الأخضر واليابس وترتفع ألسنة اللهب مجنونة هادرة ، والدخان الأسود يملأ الآفاق ويعمى العيون والصغار يصرخون ، والحمائم البيض تفر مذعورة أمام الهول الشيطانى ، يا إلهى لم كل هذا ؟ وبأى حق ؟ .. المحبة ، السلام ، المسرة ، الرحمة .. وصرخ إياسو وقد انهمرت الدموع من عينيه :

- ❖ إنهم يكذبون .. إنهم يكذبون .. هؤلاء الوحوش .. "
- ❖ أمسك أبوه بذراعه فى رفق وهتف مذعوراً :
- ❖ هذا التاج ثقيل يا أبتى .. أولئك المتعصبون يريدون أن يسوقوننا إلى الجحيم .. مستحيل .. إنهم يكرهون الإنسان .. ويمقتون حرية البشر .. " (١) .

ويؤكد الكاتب دائماً على ارتباط الشخصية بالإسلام ، فيوضح موقفها الرافض للواقع بكل تناقضاته ، ويبرز أمانيها المتعلقة بصلاح حال المسلمين ، وكانت وسيلة الكاتب فى ذلك ، الاعتماد على توظيف السيرة النبوية ودلالتها القوية فى تكوين الشخصية ، يقول إياسو :

- ❖ أخبرنى يا أبى .. أكان محمد صلى الله عليه وسلم يرعى الأغنام ؟ "
- ❖ أجل
- ❖ ولماذا تركها ؟؟

---

(١) رواية " الظل الأسود "، ص ٩ : ١٤ .

❖ ليرعى البشر بعد أن تاهوا فى الظلمات ..

❖ وهل فعل كما فعل جدى " **منليك** " ؟ ..

❖ صرخ ميكائيل كمن لدغته حية :

❖ حاشا لله ياولدى .. استغفر ربك ، لم يرفع محمد سيفه إلا فى وجه معتد على الحرمات ، ولم يحرق معبداً ، أو يكره إنساناً على اعتناق دينه .. كا ن يردد آيات القرآن

" لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ (١) .. "

❖ كان محمد يدعو ويهدى إلى الطريق الحق ، ويحنو على الناس من كل لون وجنس .. كان .. "

❖ أمسك أياسو بكتفى أبيه ، وسدد إليه نظرات والهة :

❖ ولماذا تركت دينك ؟ لماذا ؟ إنه لشئ رهيب !!

❖ أجبنى وإلا قتلت نفسى .. إنه لأمر يعذبنى .. وأنا أحبك .. أنت أبى .. قل لى :

❖ لماذا تحولت من " **محمد على** " إلى " **ميكائيل** " ؟؟

❖ أفلتت دمعة من بين أهداب الشيخ العجوز ، وبدا وجهه الملئ بالأخاديد والندوب كئيباً بائساً وقال :صدق الله العظيم

"..... إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ..... " (٢) .

ويوضح الحوار السابق مدى المعاناة النفسية لدى إياسو ، والتى لم تكن قاصرة على حال المسلمين ، بل كانت نابعة من واقع أسرته وتاريخها ، فجده منليك الذى قتل وشرد الكثيرين من أبناء المسلمين ، ووالده الذى غير اسمه وعقيدته بعد أن كان مسلماً

---

(١) سورة البقرة ، الآية (٢٥٦) .

(٢) سورة النحل ، الآية (١٠٦) ، رواية " الظل الأسود " ص ١٥ .

كذلك زوجته التى نشأت وتربت على أوهام القساوسة المضللين ، وأمه وأخته وزوجها " الرأس تفرى" الشرس ، الذى يكن العداء لإياسو وأسرته .

وفى المرحلة الثانية : وهى مرحلة التحول من المعاناة النفسية الداخلية إلى معاناة المواجهة مع رجال الكنيسة والحكومة ، فقد استطاع إياسو أن يهزم الخوف فى نفسه ، ويجعل إرادته الشخصية تنتصر ، وبدأ ذلك بإعلان إسلامه ، ومن ثم فقد بدأ يحلم بمجتمع يسوده الحب والسلام والمساواة والعدل ، لكن الأحداث السياسية الخارجية وتحفز القساوسة وأذنابهم لم يمهلاه ، فبعد أن ودع عقيدة النصرانية ، وحلق فى آفاق الرضا الإيمانى واكتشف زيف الأباطرة ، حاول جاداً أن يجوب البلاد ويعرف الناس عن قرب ، كى يدعم مركزه ويحمى عقيدته التى يؤمن بها ، وما أن بدأ ذلك حتى دقت طبول الحرب ، وبدأ وجه العالم يتغير ، وانقسمت الدول الكبرى إلى فريقين ، فانضمت تركيا إلى ألمانيا ضد فرنسا وانجلترا .. وبدأت الحرب العالمية الأولى ، فعزم إياسو على ضرورة مساعدة تركيا التى تمثل الخلافة الإسلامية فى ذلك الوقت ، وأخذ يستعد لتجهيز جيش يرسل به إلى تركيا ، رغم غضب الكنيسة وعدم رضاها ، وكانت نظرته فى ذلك تنطلق من حرصه الشديد على المسلمين ، وعلى أهمية الوقوف فى وجه المد الصليبى الاستعمارى المتمثل فى فرنسا وإنجلترا .

والمرحلة الثالثة : التى بدأت باستيلاء **" تفرى "** على العرش أثناء غياب إياسو وانشغاله بتجهيز الجيش الذى سيتوجه إلى الدفاع عن تركيا ، ويخوض إياسو الحرب ضد المنشق **" تفرى "** لكن الأحداث والظروف تأتى فى صف تفرى ، الذى استفاد من هزيمة ألمانيا وتركيا فى الحرب الأولى ، وعقد معاهدات مع إنجلترا وفرنسا بهدف تأمين وجوده على عرش البلاد ، ودحر العقيدة الإسلامية ونشر المسيحية ، بشتى وسائل القهر والتعذيب

ولم يتوان تفرى فى سحق أى مسلم يقف فى وجه طموحاته ، فانتشرت المذابح وهدمت المساجد ، وأقيمت مكانها الكنائس .

وبعد فترة من الصراع الدامى بين إياسو وتفرى استمرت عدة سنوات ، يقبض على إياسو ويلقى فى السجن ، وتنتابه حالة نفسية تعكس شعوراً بالأمل ، ويقيناً فى نصر الله القريب .

وقد واجه " **إياسو** " ، " **تفرى** " بعد أن انتهت المعركة ، وكانت مواجهة بين المبادئ بين الحق والباطل ، يقول إياسو مخاطباً تفرى :

❖ " أتعلم يا تفرى أن المعركة الكبرى لا ترتبط بك وفى وحدنا .. إنها صراع أزلى بين الحق والباطل .. معركة مبادئ ياتفرى ، إنك لم تحقق نصراً نهائياً بعد لقد استطعت أن تسرق النصر الظاهرى ، وتستولى على الأرض ، واستطعت يا تفرى أن تكتم أصوات الأحرار ، وأن تنشر الإرهاب فى كل مكان واستطعت أن تأخذنى أسيراً ، لكن الشعب فى صمته أعلى هديراً منى ومنك والشعب برغم صمته لم يزل صامداً مترقباً ينتظر اللحظة الحاسمة ، لقد أعلن الشعب رأيه الحقيقى فيك وفى ، وأنت تعرف هذا الرأى ، ولكنك تتجاهله إنك يا تفرى تتمسح فى الدين ، وتجعل منه ستاراً لأطماعك ، أنت تعلم ذلك .. لكن الدين براء منك ومن أفعالك ، الدين يا تفرى أى دين يجعل الأمر شورى ، ويعترف بإرادة البشر ويقدس حرياتهم وآراءهم .. والدين يا تفرى ليس فيه تأكيد للخداع والمكر والكذب والإرهاب ، ولا يبيح إراقة الدماء من أجل أغراض دنيوية تافهة .. والدين يا تفرى لا يقرك على تحالفك مع

الاستعمار عدو الله وعدو الشعوب .. والدين يا تفرى لا يقرك على إذلال البشر وإدخالهم فى عقيدتك على الرغم منهم " (١) .

ويبقى إياسو فى السجن بعشرة أعوام ونصف ، يعانى فيها مرارة الظلم والاضطهاد على نفسه وعلى الأحرار من المسلمين الذين أحبوه وأخلصوا له . وتصل به الحالة النفسية التى تلازمه إلى مرحلة من التأرجح بين الشك واليقين والتبرم بالدنيا والحياة ، وقد وفق الكاتب فى توظيف الصراع الذى يعتمل فى داخله ، فكشف عن نفس راضية مطمئنة يقول وسرعان ما يثوب إياسو إلى رشده ، ويذرف دموع الندم ، ويهتف من أعماقه غفرانك يارب .. فلترحم ضعفى ..إننى إنسان محدود الطاقة .. هكذا خلقتنى .. لكن حياة السجن ميتة لا طعم لها .. إننى أقرأ القرآن فينشرح قلبى ، ويتسع ضيق السجن ، ويتحول إلى جنة وارفة الظلال ، وتفيض روحى بالإمل والإيمان .. لكن الأفكار يا إلهى قد تشتط بى ، وتجرنى إلى الضحايا أبى الذى قتلوه ، ومالفن المسكينة التى حاولت إقناعى ذات يوم بانفصالها عن هذا الشقى فرفضت .. ورفاق الجهاد فى الأغوار والمزارع والجبال .. ثم أفكر فى " **هيلاسيلاسى** "وقد انتصر بخبائثه ومكائده الشيطانية .. ماذا أقول ؟؟ إن جسدى أحياناً يلتهب بالثورة والحقد ، لكنى أشعر بعجزى.. .." (٢) .

وانتهى الأمر بمقتل " **إياسو** " على يد تفرى داخل السجن ، وقد استطاع الكاتب أن يجسد فى هذه الشخصية الصورة الإسلامية بكل مظاهرها الإيجابية ، رغم ما يحيط بها من اضطهاد وظلم وقسوة ، واستطاع أن يبرز فيها الشجاعة والبسالة والصبر على المكروه والجهاد النفسى والبدنى المستمد من تعاليم الإسلام ، وكيف حاولت الشخصية أن تصمد فى مواجهة الزحف الصليبى والمسيحى ، فى بلاد تسيطر عليها الأفكار الاستعمارية والإرساليات التبشيرية .

---

(١) رواية " الظل الأسود " د/ نجيب كيلانى ، ص ١٧٤

(٢) رواية " الظل الأسود " د/ نجيب الكيلانيى ، ص ١٩٣ .

وقد فات على الكاتب أن يصف الملامح الخارجية للشخصية ، المرتبطة بالشكل واللون والعادات والتقاليد ، والأنماط العامة ، وكان جل اهتمامه ينصب فى وصف سيطرة الكنيسة واضطهاد المسلمين فى هذه البلاد ، أيضاً انصب اهتمام الكاتب على وصف الحالة النفسية للشخصية ومعاناتها وصراعها ، وإن جعلها فى قليل من الأحيان تبدو كأنها عاجزة عن تحقيق رغباتها وأمانيها .

ب) الشخصية النفعية المستبدة (هيلاسيلاسى) :

والشخصية الثانية التى تمثل الوجه الآخر فى الرواية هى شخصية الرأس تفرى الذى غير اسمه إلى " **هيلاسيلاسى** " بعد أن استولى على عرش الحبشة ، وقد جسد الكاتب فى هذه الشخصية ، الحقد والكره العقائدى ، والمكر والدهاء والنفعية والمصلحة الشخصية واستطاع الكاتب أن يكشف زيف تفرى وتسلطه وتحريفه للعقيدة المسيحية حسب هواه ونفعيته ، وليس هناك أكثر من تخليه عن شعبه وتعاونه مع المستعمرين ضد مصلحة بلاده بعد أن وطئ بأقدامه المقدسات الدينية والإنسانية .

وقد جعل الكاتب هذه الشخصية قرينة للشر دائماً ، فمسلكه مع زوجته " **مالفن** " وأخت إياسو، كان مسلك الانتهازيين ، فقد تزوجها بهدف التقرب من أخيها الإمبراطور وظل يداريها حتى قتلها بالسم كما فعل مع أبيها ، ولم يكن موقفه من الشعب أحسن حالاً فقد أذاقه الهوان والعذاب ، وقتل وآباد قرى بأكملها لمجرد أنها خرجت عن سياسته .

ويمكن القول أن الكاتب وفق فى جعل هذه الشخصية مصدراً للكراهية الدينية والسياسية ، أيضاً جعل الشخصية نفسها تشعر بالتلاشى والهوان فى النهاية بعد أن قررت الفرار هرباً من البلاد ، وخوفاً من الإيطاليين الذين قدموا غازين إلى الحبشة ، وجعل الكاتب الشخصية تعبر عن عجزها وضآلتها وقد انتابتها حالة من البكاء .. يقول :

❖ لأنى مع كل ذلك أشعر أنى عاجز.. لقد قتلت أياسو لكن لم أزل أرهبه.. أشعر أنه يتعالى على ويسخر منى ، وينظر إلى وكأنى طفل أحمق يلعب بالنار.. الحقيقة أنه لم يطفئ النار المشتعلة فى قلبى .. ! ابتسامة وجهه الميت الشاحب توجه إلى سخريات مرة وإهانات بالغة .. .. ، إن كلماته الجوفاء المقيتة تفرض نفسها على ، لم تزل تطن فى رأسى"(١).

كما قدم الكاتب فى روايته صورة واضحة لرجال الكنيسة المستهترين الذين يلهثون وراء المصالح الشخصية تحت ستار الدين ، من هؤلاء الأنبا ميتاوس مطران الحبشة وصاحب النفوذ الكبير فى البلاد ، وقد فضحت الرواية خططه وأساليبه فى التنكيل بالمسلمين ، وكيف يفرض العقيدة المسيحية عنوة ويجبر الناس على اعتناق دينه ، وكشفت الرواية أيضاً عن المخططات التبشيرية فى بلاد الحبشة وما يعانيه المسلمون فى هذه البلاد.

(١) رواية " الظل الأسود " د/ نجيب كيلانى ، ص ٢٠٧ .